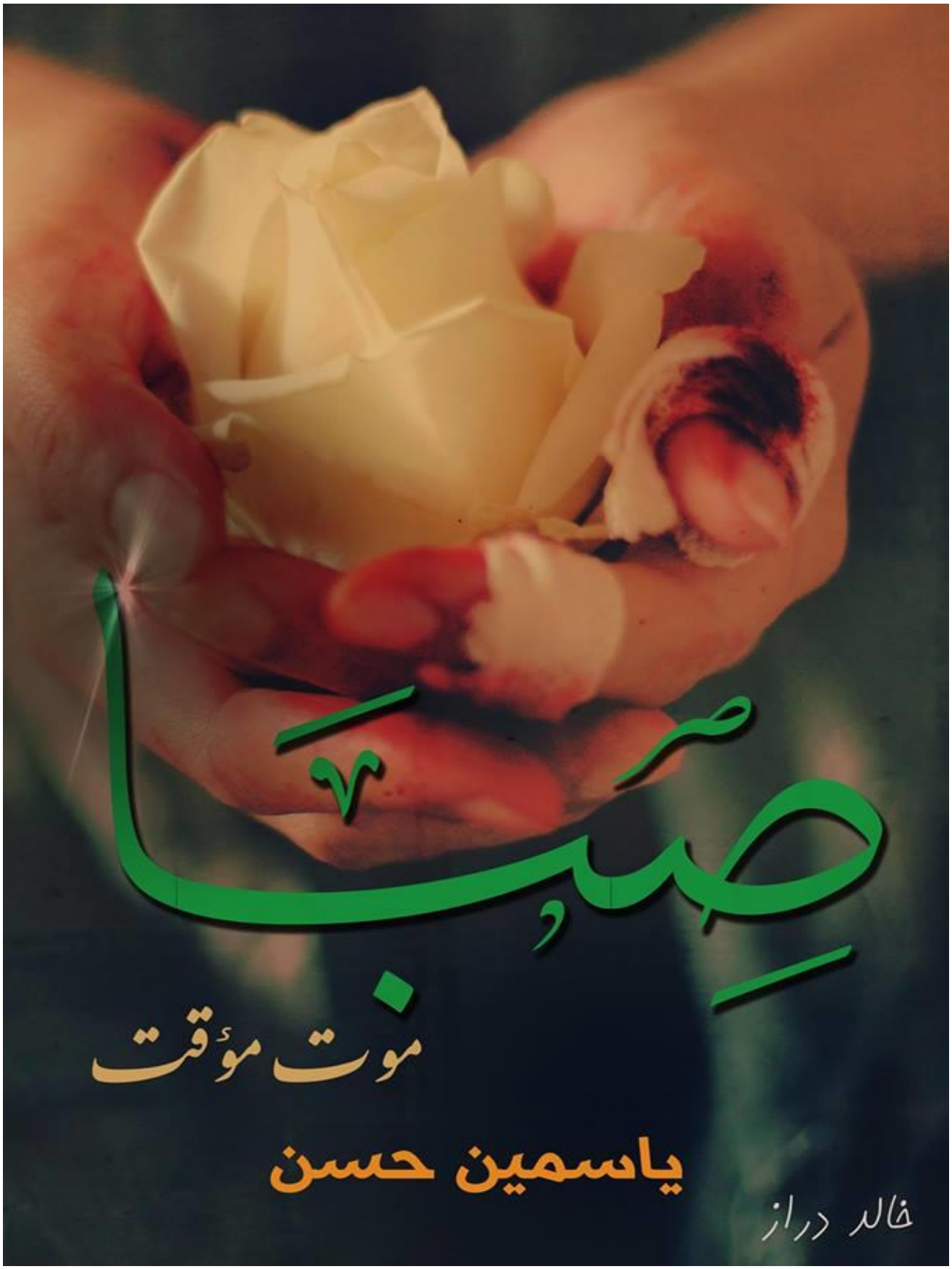
صبا
موت مؤقت
ياسمين حسن
خالد دراز

إهداء.

إلى " عمرٍ" ما يعيش في هذه الأرض .
وصِباً يسكن في قلوبنا.

دكتور/ يوسف زيدان

إليك الـصِبا الذي حاولت سرده على طريقتي الخاصة

أتمنى ان يروق لك فتصح نبوءتك عني .

لكل الأسماء التي أريد ذكرها ، اصدقائي الأحباء ، فتياتي الرائعات ، و أعضاء عصير الكتب الكرام أقول بصدق : شكرا لثقتكم .

أحمد عيد

شكرا لأنك جاهدت في تهذيب هذه المقطوعة المحببة إلى قلبي وجعلتها أكثر فصاحة ووضوحا.

د/ خالد دراز

ممتنة لك جداً .. شكراً بحجم السماء على عبقريتك في صنع غلاف يليق بالطفلة المسماة صِبا

صِبَا

الحبُّ إعصارٌ كامنٌ في زاوية بعيدةٍ، بأعماقِ القلب . . إعصارٌ يتوق دومًا لاجتياح كل ما يعترض طريقه .

" يوسف زيدان "

زيارة منتصف الليل

مئات من الاجساد كل يوم تنزل تحت الارض و مئات أخرى تأتي اليها ، ارواح تصعد إلى السماء وارواح تأتي إلى الارض وما بين اولئك و هؤلاء،هناك ارواح تبقى عالقة في الافق ..

ها قد انتهيت من كتابة النهاية ، كم هو مرهق جداً ان تضع نهايات لأشخاص قمت بصناعتهم وكتبت اقدارهم، حلمت بهم او ربما فكرت فيهم وأنت تتناول إفطارك الصباحي برفقة زوجتك التي تتأفف من عبء الكتابة ومرضها الذي اصابك وفتك بك ... مؤلم ان تضع لهم نهاية بعد ما عايشوا مرضك ، شهدوا أشد لحظاتك حميمية ، تنزهوا معك في شوارع القاهرة الكبرى .. ها أنت الآن تقتل أحدهم على الورق وتضع آخر في جامعة أو ربما أنزلته مشفى أمراض عقلية ، تبدو الكتابة صناعة إلهية بحتة ، هكذا فعل الإله عند بدء الخليقة !

الساعة الواحدة صباحاً ، الآن موعد القهوة الاخيرة قبل أن أهرع إلى فراشي منتظراً حلمي الجديد ، في الصباح بالكاد اذكر مشهداًأو اثنين من أحلامي والبقية الباقية تذهب هباءاً منثوراً مع بقايا النوم ...

هذه هي غرفتي المحببة إلى قلبي، مكتبٌ من الخشب المطلي بلون بني قاتم ، سجادة بذات اللون تناثرت بها أوراق شجر خريفية وزهرات بنفسجية حائرة ، أمام المكتب كرسيين لا يجلس عليهاأحد ، قبالة المكتب رابض أسفل النافذة المطلة على الفراغ يوجد باب الغرفة؛ وبجانب الباب أريكة تعشقني كما أعشقها، علقتُ فوقها لوحة تعود للقرن الرابع عشر. قطعة أثرية تشبّع روحي عندما أقف حائراًأمام نهاية إحداهن على الورق. من ينظر إليها لن يجد سوى صحراء قاحلة ونبتة تقف شامخةً وحيدةً. تشبهني كثيراً هذه النبتة التي لو كانت اللوحة حيةً لأصبحت شجرةً مثمرةً ، لكنها ذبلت كما ذبلت أنا ... ثمة مكتبة تقليدية لابد من وجودها بالقرب مني لتدفئني همهمات أصدقائي من الكتب، وأخيرا بالزاوية .. مشجب علقت عليه بعض معاطفي .. وهذا هو أنا، عمر، كانت أمي تحب هذا الإسم كثيراً ، وورثت حبه منها .

صوت طرقات خفيفة ينبعث من الخارج. قام عمر ليفتح البابمتعجباً من ذلك الطارق في مثل هذا الوقت، لكن

عجبه اشتد أكثر وهو أمام الباب المفتوح وما من أحد أمامه. الطريق هادئ تماماً والأشجار تتراقص على نغم النسيم البارد في ليل أكتوبر ، قمر ما يطل من السماء مبتسما ولا أحد يحرك ساكناً سوى عمر الذي استنشق من الهواء البارد ما يستطيع ثم أغلق الباب وعاد في خط مستقيم إلى غرفته. النافذة في غرفته مغلقة. تعوّد إغلاقها في الليالي الباردة. جلس مجدداً إلى كرسيه خلف المكتب ثم شخصتعيناه فجأةً فور وقوعها على الأريكة في المقابل. رعدة باردة سرت من بين كتفيه حتى نهاية عموده الفقري. فغر فمه أمامها وبدت قسمات اندهاش ممزوج بالخوف على وجهه الوسيم .. همس بلا وعي ..

-" من انتِ ؟؟ "

لم يأته جواب ، فازدادت حيرته ثم صاح بصوت أعلى من سابقه.

-" كيف دخلتِ إلى هنا ؟ "

-" من الباب " ...

جاء الرد بصوت فاتن يفيض رقةً وحناناً. كانت تجلس على الأريكة مادةًإحدى ساقيها لتضع الأخرى فوقها. فتاة تبدو في بداية العشرين من عمرها. لها شعر حريري أسود تغار من سواده ظلمة الليل الحالكة؛ وعينان بدا فيهما البحر غاضباً. بشرتها بيضاء تشعرك بأنها ستذوب إذا ما لمستها.قطعةٌ من السحاب النقي تقف أمامك. وجهٌ أقل ما يقال عنه أنه وجهٌ ملائكي. شفتان شهيتان وأنف معقوف ينتهي بحاجبين أسودين معتدلين. اختلطت مشاعر عمر بين إعجابه بتلك الحسناء التي تمددتبفستانها الأبيض فوق أريكته المحببة وقلقه من كونها غريبة و قد تكون لصة!

هل للصة أن تكون على هذا القدر من الجمال وبهذه الجرأة والأناقة والرقة ؟ هل للصة ان تتمدد هكذا على أريكة بغرفة ضحيتها ؟؟ هل للصة أن تطرق الباب قبل الشروع في السرقة ؟

شعر عمر بمدى سذاجته وهو واقفي مكانه لا يحرك ساكنا.غارقُفي أفكاره الواهية بينما تنظر إليه الحسناء بعينين يفيض منهما حنان غريب.

-" من تكونين ؟ "

استجمع كل ما لديه من قوة وتركيز حتى لفظ سؤاله وهو لا يستطيع توقع إجابة. عجزت قدرته ككاتب عن توقع إجابة منطقية لسؤاله. لم يكن سؤالاً واحداً وإنما نبع من الأسئلة تفجرٌ فور رؤيتها.

-" أنا ؟ "
قالتها الحسناء وهي تشير بيدها نحو صدرها. أي يد هذه وأي صدر ذاك. أوشك عمر أن يقسمبأن جسدها ما خلق إلا من المرمر الخالص. نبرة صوتها تلمس روحه من الداخل. قالت " أنا !! " مستفهمةً و يا ليت كل من قال " أنا" قالها مثلها.
-" أجل .. انتِ ، كيف دخلت إلى هنا ، ومن تكونين ؟ "
-" أنا .. صبا ، جئت لرؤيتك "
نطقت الحسناء بهدوء بالغ عبارتها وهي تنظر إليه بعينين ثابتتين وصوتٍ هادئٍلا ينبعث إلا من جنة وارفة. ترى من تكون هذه الآية المبهجة !!؟ ... المفاجئة عنصر مدهش في فن الحكاية. من المضحك جداً أن يقع صانع الدهشة نفسه في دهشة مثل هذه.

قامت الفتاة أمام عمر المتجمد وأخذت تدور في الغرفة وتتأملها سريعاً، ثم اقتربت منه فلم يحرك ساكناً. كاد قلبه ينفجر خوفاً وتعجباً. عطرها الأخاذ يملآ أنفه، يغرقه، يكاد يصل للطابق العلوي من المنزل. اقترب وجهها من وجهه وهي تحدق في عينيه وتتفرّس ملامحه القلقة.همست و بصوتها اختبأت رنة خبث طفولي.

-" خائف ؟ "
-" من ماذا ؟ "
-" منّي .. "
-" وما الداعي للخوف منكِ !! "
لماذا لم تبتدئ محاورتها المقيتة هذه وهي في موضعها على الأريكة بعيداً، أقسم أنها تسمع نبضات قلبي، تشم رائحة خوفي، لكن .. لماذا ينتابني كل هذا الكم من الخوف ؟؟ ما الداعي للقلق أمام مراهقة حسناء وأنا رجل في الخمسين من عمري !

ابتعدت عنه الفتاة لتوليه ظهرها وهي تفتش في المكتبةغير عابئة بحاله، تتأمل أسماء الكتب، تقف على أطراف أصابعها. من الفتنة أن تكون الفتاة قصيرة، والفتنة الأكبر أن تقف لتشاهدها وهي تجتهد للوقوف على أطراف أصابعها في محاولة للوصول إلى شيء بالأعلى.

-" لم تخبريني ، من أنتِ ، وماذا تريدين ؟ "
-" أريد البقاء معك "
-" معي !"
-"نعم"
-" هل تعرفينني ؟ ..إن كان الجواب بنعم فأنا لا أعرفكِ. "
-"أعرفكَ طبعاً "
-" هل تعرف أمكِ أنكِ هنا ؟ "
-" ستعرف عندما تستيقظ ، وستحزن ! "
-" هل ستبقين هنا حتى تستيقظ أمك ؟! "
-" سأبقى معك إلى الابد "
-" الأبد ؟ "
-" نعم "

أُبوة ما فاضت من العدم لتغرق عمر من رأسه حتى أخمص قدميه تجاه الفتاة الرقيقة التي كانت ترسل أجوبتها بصوت يزداد فتنة كلما تحدثت. قلق ما يساوره. بدأت الظنون في التكاثر داخل عقله. يبدو أنها مزحة افتعلها أحد قرّاءه. هي ليست لصة بالطبع، لكنها مجنونة على كل حال. تقول أنها ستبقى إلى الأبد .. أي أبد هذا ؟ ما الذي نقصده عندما نطلق هذه الكلمة في فخر وسعادة .. ما هو الأبد ؟؟؟

سؤال ظل يكبر ويكبر حتى ابتلع عمرَ لكنه عاد مندهشاً من غرقه ليلتفت يمنة و يسرة. مساحة الغرفة ليست شاسعة لهذا الحد ... لقد اختفت الفتاة !!أين ذهبت .؟ بل من أين ذهبت ؟؟ إذا استطعت الإجابة على هذا السؤال ستجد إجابة للسؤال الأكبر ، كيف جاءت؟؟؟
وقف عمر أمام النافذة التي تطل على فراغ؛ ليل ساكن. لماذا لا يعيش أحد بهذه المنطقة سوى القلة القليلة؟ لماذا وقف المنزل وحيداً لا يستندمن جهاته الاربعة على أي منزل آخر ؟يبدوا كالصومعة !.

وابل من الأسئلة الغريبة سقط على رأسه بعد وصوله لنهاية روايته. زوجته التي نامت منذ ثلاث ساعات تماماً كموظفي الشؤون الإدارية، كانت تملي عليه قائمة مشتريات. سيذهب صباحاً للإتيان بها. تحتاج المربى والسمن والبيض، بالرغم من أنها لا تجيد فن الطهي إلا أن لديها إيمان قوي بما تفعل. لكن ..من هذه التي أتت بغتة ورحلت قبيل أن أشبع من دهشتها. هل تتجول الأشباح ليلاً في هذه المنطقة ؟؟ هل يجوز لكاتب مثلي أن يفكر بهذه الطريقة الحمقاء !؟
الخوف يملأ صدري ، بدأ الأمر باحتمال كونها لصة ثم أصبحت في غمضة عين كائناً لاأعرف ماهيته الآن. يبدو أنني أرهقت نفسي في العمل هذه الليلة .. حتماً عمل الليلة كان مرهقاً؛ فهو وضع نهاية. وكما اتفقنا أن وضع النهايات هو أصعب ما يمر بالكاتب. حالة من الربوبية المطلقة نشعرها تجاه أبطالنا الذين نتحكم في مصائرهم. لذلك فالأمر مرهق للغاية .

تبدو من بعيد كالأم عندما تحتضن أولادها، صافية مظلمة صامتة لا تضيق ذرعا بأحد. تجول فيها العيون وترفع إليها الأكف متضرعة لمن أمسكها ونصبها فوق الأرض.غائمة كانت تلك الليلة عندما صعد عمر إلى غرفته .أطل القمر من كبد السماء. إنها تحتضنه بعنف، تمسكه كي لا يسقط في غرام البحر. تردعه كأم تخشى على وليدها الانحدار في هوة العشق السحيقة. ترى هل يعشق البحرُ القمرَ فعلا؟؟ لا احد يدري ...

تأمل عمر جسد زوجته الذي بدا من تحت الغطاء كتلة مظلمة صامتة لا توجد بها تفاصيل حية. فقط جسد يشبه أي امرأة أخرى. لماذا لا يشعر تجاهها بالتميز ! لا يعرف لذلك سبباً. خلع معطفه ودخل إلى فراشه بتلك المنامة ذات الخطوط الطولية التييحبها كثيراً. لقد ورث هذا الشكل التقليدي لملابس النوم عن أبيه. لم يخلد للنوم سريعا وإنما ظَلّ يحملق في سقف الغرفة. متى اخترعوا طريقة طلاء الاسقف بالجير؟ من الشخص الخبيث الذي قرر أن يعاقب عماله بهذه الطريقة !الرسوم أمام عينيه تلتف حول النجفة المعلقة. زوجته ذات ذوق رائع في اختيار قطع الاثاث. هي من اختارت هذه النجفة بقطعها الرقيقة وضوئها الخافت ليلاً. ليت الرواية لم تنته؛ فقد كان يشعر بالأنس مع ابطالها وهم يسامرونه قبيل النوم كل ليلة. ها هو وحيدٌ تحت سقف الغرفة يتأمل أشكالاً هندسية مفرغةً.

لمعت في الزاوية ومضةٌ خافتة جعلته يرفع رأسه لأعلى. تكاد عيناه تخرج من مَحْجِريها. هي ذاتها ولكن في حجمالبرتقالة تكورت في زاوية السقف، تنظر له وتبتسم. صبا ، ذلك هو اسمها و أي صبا أجمل من ملامحها وجسدها وروحها؟!! مهلا !! ... من هذه !!

اعتدل في جلسته وفرك عينيه بكلتا يديه ثم رفع رأسه لينظر جيداً. صرخة فزع ندت عنه فور رؤيتها أمامه مباشرة فوق الفراش تجلس، لكنه لا يشعر بثقل جسدها !

كيف تتحرك بهذه السرعة العجيبة !! همس لنفسهأنها مجرد أوهام.إنه مرهق جداً إلى حد التوهّمات، لكنها ضحكت و ترددت نغمات ضحكها الساحر حتى عرجصوتها إلى السماء؛ قالت بصوت خافت مشوب بضحكة مائعة :

-" أنت لا تحلم ، ولا ترى أوهاماً يا عمر "

-" آه ، ألهذا الحد بلغت حلاوة اسمي !! " .. لم تكن هذه اجابته على حديثها بل هي خاطرةٌ قفزت من أعماق روحه فقط فحبسها بين شفتيه.

-" من أنتِ "

-" قلت لك .. أنا صبا "

-" ومن تكونين يا صبا ، أنا لا اسال عن اسمك ولكن عن شخصيتك ، ماهيتك ؟ "

-قالت مبتسمة :أنا أشد الفتيات إعجاباً بك ، والآن أقول لك أنني أول روح تعجب بك ، والآن أنت أول كاتب تعشقه روح "

-" روح ؟!! "

من الممكن ان يحلم المرء بروح أحد أقاربه ، أو يرى جنيّاً مثلاً ، وربما يصيبه مسٌ وتتلبّس به الشياطين، لكن روح ! في الحقيقة ؟!

لم يستطع عمر تصديق ما قالته صبا. ظل فاغراً فاه أمامها وهي تنظر له بهيام بالغ.كانت تجلس متكورة على ذاتها أمامه بذات الفستان الأبيض وشعرها الأسود مسكوبٌ على كتفيها. قال وهو يحاول السيطرة على الرعب الذي ملأ نفسه ..

-" هل التقينا قبل الآن ؟ "

-" نعم ، بالأسفل منذ ما يقرب من ساعة "

-" هل التقينا وانتِ حية ؟ ... عفواً اقصد وأنتِ على قيد الحياة ؟! "

-رمقته بنظرة حنان بالغة وهمست "لا .. لم أنل هذا الشرف"
-" شرف ! ..."
التفتت زوجة عمر قليلاً وهي تقول بصعوبة من يصارع الموت وليس النوم ،،
-"ألن تكفَّ عن حديثك مع نفسك كالمجانين ؟! "
-" وهل قمت بذلك من قبل ؟ "

دهشةٌ عارمةٌ بدت على ملامحه وهو ينظر نحو زوجته. أدار وجهه ليجد العفريتة الصغيرة وقد تبخرت تماماً ، فشهق شهقة عالية والتفت سريعاً في كل أنحاء الغرفة... حزن لاختفائها المفاجئ والتفت إلى زوجته مرة أخرى رافعاً يديه في اتجاه رقبتها كرغبة غاضبة في قتلها.

إذا ما تأمل المرء ذات يوم سلَّم الشهرة، سيجد أن الكاتب يقع في تلك الدرجة التالية للمطربين والممثلين والمخرجين أو لِنقُلباختصار أهل الشاشة ثم المجرمين و أهل المحاكم والسجون، وأخيراً تأتي درجة الكتّاب لتجد أن الشريحة المهتمة بهؤلاء المهمشين تقريباً، لا اقول قلة، ولكن شريحة ذائبة لا تكاد ترى بالعين المجردة.
كان عمر يستدعي النوم لتوّه نادماً على إنهاء روايته التي طالما حلم بأنها ستحصل على العديد من الجوائز، إلا أن النوم جافاه على غير العادة هذه الليلة ولم يعد هو في حاجة إليه. ثمة حدث آخريستحق التأمل ، روح !

نزهة برفقة الروح !

ستموت الحكايات ذات يوم وتجد في الهواء ما تبقى من أرواحها. على أحد الأرصفة، وجد رواية له. تلك الرواية التي ماتت بطلتها .. بل انتحرت. ترى هل بالحياة ما يجعل الانسان جباناً لدرجة الموت ؟! هل هناك شيء أكبر من أن نواجهه ؟ الساعات القليلة التي تسير بنا طوال اليوم إلى أعمالنا تخدعنا ثم نمسي بلا ساعات حتى يسلب من العمر يوم آخر. وهكذا تحملنا ساعات أخرى في نهار آخر. توقفت فتاة وتناولت الرواية من يد البائع، تصفحتها ووضعتها على الرصيف مرة أخرى، أمسكت بكتاب آخر وهي تنظر إلى الرواية بنصف عين، حارت أمام الكتب المصفوفة على الرصيف ثم انتهى بها الأمر إلى تناول الرواية مرة أخيرة لتشتريها. ألهذا الحد لستمقنعا؟! تبدو كخيار أخير لمن يبحث عن أي شيء يمضي فيه ساعاته التي عجز عن صرفها في شيء أفضل. من المؤسف ان يقف الصانع امام صناعته ليشاهد كسادها. تذكر عبارة صبا " انا أشد الفتيات إعجاباً بك ، والأن انا أول روح تعجب بك " .. الأمر مضحك للغاية ، الشفاه الوحيدة التي أمطرت على أذنيه كلاماً يبدو صادقاً أصبحت روح !

فزع من المفاجأة التي انتبه لها للتوّ. لو كان ما شاهده ليلة أمس حلماً لما تذكره بهذا الوضوح. ولو كان حقيقةً فحريٌّ به أن يحزن حزناًبالغاً لأن تلك الفتاة التي منحته حبها وإعجابها قد رحلت ولم يبق منها سوى وهم ! الحزن لص حقير ، يختبئ في افراحنا الصغيرة وسعاداتنا المتواضعة ليسرق من أعمارنا ما يستطيع.

جاءت ، من بعيد بين طيات كتاب أو ربما في انعكاس ضوء الشمس على مرآة مكسورة في يد أحدهم ، وقد تكون هي تلك الزهرة الندية التي تفتحت ببهاء أبيض في أصيص وضعه بائع الكتب بجوار كتبه. نظرت إليه بشغف. فاح عطرها. اقتربت منه. تهللت قسمات وجهه متناسياً كونها روحٌ. وقفت بجانبه بفستانها الأبيض. أمسكت بيده. لم يشعر بملمس كفها الصغير، لكن قشعريرة باردة سرت في خنصره وحتى آخر ظهره. همست في أذنه وهو ساكن تماماً.

-" تحيتي البالغة لكَ كاتبي المفضل "

-" تحيتي لكِ آنستي "

-" اشتقت إليك "

-" إليّأنا ؟! "
-"نعم "
-" هل للأرواح قلوب مثل البشر؟ قلوبتشعر بالشوق فعلا ؟"
-عبست ملامحها فبدت مكسوة بالحزن لأنه يراها ناقصة ثم همست " المشاعر ذاتهشيءٌ روحانيٌلا يلمس"
-" معذرةً فقد خانني التعبير "
-" لا عليك ... إلى أين ستذهب ؟ "
-" هه .. لا اذكر إلى اين كانت وجهتي "
-" حسنا سنأكل المثلجات "
-" حسنا "

تعالت ضحكاتها و هي تمسك بيده وبالرغم من أنه لم يشعر بلمسة يدها وإنما شعربالقشعريرة ذاتها و قد سرت بجسده.انتقلا بعد بضعة خطوات مشاها على قدميه مرتدياً بزته الرمادية وقميصه الأبيض. شعره الأسود الناعم ينام إلى الوراء قليلاً؛ تتأمله صبابعينين مفتونتين.تسير بظهرها أمامه عكس الطريق. مرتين يقول لها احذري وتضحك من سذاجة أبوته تجاهها. دخلا من باب المقهى. صفوف من الزهور على الجانبين تنوعت ألوانها بين الأحمر والأصفر والبنفسجي في شكل عشوائي مبهج. بضعة طاولاتيلتف حول كلٍّ منهنأربعةكراسٍ.
بُعثرتالطاولات في فناء واسع يطل على النيل البهي. جلس عمر على واحدة منهن وفي مقابله جلست صبا.
نظرت إلى النيل بشجن ثمالتفتت إليه فوجدته ينظر بذات الشجن ولكن إليها.
-" ما بك ؟ "
-" لا أصدق "
-" لا تصدق ماذا ؟ "
-" أنكِ شبح "
-" لست شبحاً "
-" ماذا تكونين إذن ؟؟؟ "
-" روح " .. هنا تحول الشجن في وجهها الطفولي إلى حزن قلب كسير. التفتت إلى النادل الواقف أمام الطاولة والتفت عمر بدوره فقال بصوت خفيض

-" اثنان .. "
-هتفت صبا سريعا .." واحد فقط "
-" عفواً .. أريد كأساً من المثلجات من فضلك "
انصرف النادل وظلت صبا تضحك عالياً وهو ينظر لها بعجب ودهشة .. لكن سعادة ماكانت تغمر قلبه الكهل.
-" ما الذي يضحكك إلى هذا الحد؟؟ "
-" لأنك نسيت أنني روح ، وكنت ستطلب اثنين فعلاً "
-" لقد جئت إلى هنا لأنك انتِ من طلبته "
-" سآكل معك من نفس الكأس "
-" معي ! " لا إراديا انقبض قلبه وشعر بامتعاض من الفكرة !
وجد نفسه يزجر شعوره بالانقباض ويحادث ذاته قليلاً ، هل جننت ؟!!، لقد قبلتَأن تأتي بك إلى هنا واستمعتَ إلى رغبتها في تناول المثلجات والآن شعرتَ لتوك بالخوف ! رجل عجيب.
نظر صوبها وهي تمسك بخصلة من شعرها الليلي بين أناملها المرمرية وتنظر إليه بطفولة مبهجة. تأمل حياته الصامتة قديماً كما لو أنها لوحة باهتة ، انطفأت ألوانها ووهنت خطوطها. لكن ربيعا ما يلوّح في الافقالآن، يقترب من القلب رويداً رويداً .
وضع النادل الكأس المزينة بالشكولاتة وكوباً من الماء وملعقة واحدة .. نظر عمر إلى الطاولة التي وُضع عليها مفرشٌ أزرق اللون و إلى الكأس الشهية ... فكر للحظة متى كانت آخر مرة تناول فيها المثلجات ؟؟؟
ربما في تلك الأعوام التي لا نحمل فيها هما سوى هم المذاكرة كي نحصل على مجموع يليق بالكلية التي نريد ، كم تفارقنا طفولتنا وتخوننا الحياة بالقدر الذي يحول بيننا وبين العودة إلى تلك الطفولة مجدداً. مد يده بالملعقة إليها وهي تنظر إليه وتبتسم ..
-" تفضلي .. "
.....-
-ما بالكِ تضحكين .. هل هناك شيء يستدعي كل هذا الضحك ؟ "
-تتعالى ضحكاتها وهي تشير إلي الناس من حولهم
-" آه ، يبدو أنكِ طفلة لم تكبر بعد ، هيا لتأكلي "

بدأ انفعاله يزداد أمام ضحكها ثم خفتت صيحاته فجأة عندما التفت إلى الناس من حوله. كلهم ينظرون باندهاش عجيب، وبعض النسوة يتهامسن ويرمقنه بنظرات مرتابة ضاحكة. ثقل ما يدبأسفل بطنه ورعشة خفيفة تنال من أنامله فيرجع يده الممتدة إليها، ثم يبتسم ابتسامة متكلفة وعلى وجهه وابل من الإرتباك والخجل ..

-" ماذا بهم ؟ "

-" بالطبع يقولون عنك مجنون لأنك تتحدث إلى الفراغ "

-" لكنني أتحدث اليكِ "

-" لكن .. أنا فراغ يا صديقي ! "

-" فراغ ؟؟؟ "

-" المثلجات إن لم تتناولها باردة ستذوب وتتحول إلى فراغ ، والسحاب الجميل يتبخر ويتحول إلى فراغ ، والسماء ذات يوم ستصير دخاناً "

-" فيلسوفة ؟! "

-" لا بل مشروع قارئة لم يكتمل "

-قال متلذذاً بمثلجاته " و لماذا لم يكتمل ؟! "

-" لأنني مت . "

سقطت الملعقة من يده فلم يستطع أن يرفع رأسه لينظر في وجهها الملائكي. لقد حاول منذ قليل أن يتغلب على امتعاضه تجاه فكرة مجالسة فتاة ميتة، لكنها تصر على أن تذكّره بهذا الأمر كي لا يستمتع بكأس المثلجات اللذيذ. حسنا،إذا لم تستطع الهروب فاستمتع بالأمر !

-" كيف متِ ؟ "

-" قل برأيك ، كيف تموت فتاة رقيقة مثلي ؟ "

-" كيف؟ غرقاً في حوض من الماء المعطر بالزهر والياسمين ؟ "

-" لا ، قل توقعا آخر"

-" قتلتِ ؟ "

-" الأفلام والروايات جعلتك تفكر بجنون"

-" لا أرى أشد جنونا من مجالستك ِالآن ، وهؤلاء جميعا لا يرونكِ "

-" حسنا ، سأخبرك "

-"كلي آذان صاغية "
-"كنت في الليلة الاخيرة عندما قررت التخلي عن حياتي في سبيل العيش معك ما تبقى من الفترة الزمنية الخاصة بي على وجه الارض "
-" قررتِ ؟!! "
-" آآ أقول الصدق .. لم أقرر، ولكن الامر كله حدث عن طريق الصدفة البحتة "
-"كيف ؟ .. "
-"لقد تمنيت لقاءك فعلاً ، بالمناسبة ..إنك لم تكن مجرد كاتب مفضل لدي .."
-" وماذا بعد ؟ "
-" لن أستطيع إيصال الفكرة لكنني الآن ..ميتة ، ومن المضحك ان جثتي ما زالت في المشفى "
-وهل. تعتقدين أني ساذج إلى هذه الدرجة ؟ "
-" لا . ولكن، اسمع .. كنت في طريقي إلى حفل توقيع أعمالك.. "
-" منذ أيام ؟ "
-" نعم .. ولكن قبل ان أدخل إلى الحفل ، لا بل قبل أن أصل إلى صالة الحفل،صدمت بسيارة أردتني صريعة في الحال "
-" وذلك هو السبب في ظهور عفريتك لي ؟؟ "
-" لا بل السبب في أنني أحبك .. جدا ، وأنا لست عفريتاً "
و بينما هما مسترسلان في حديثهما ، ينظر الناس من حولهم ويضحكون على عمر ، ذلك الرجل الذي انفعل اثناء حديثه مع اللاشئ و بدت قسمات وجهه تند عن مناقشة مهمة ، لكنه لم يأبه بهم. فقط يستمع إلى تلك الصغيرة التي دفعت عمرها لقاء حضور حفلة من حفلاته و يا ليتها حصلت على مقابل ما دفعت.
ألهذا الحد يا عمر؟تؤثر في الناس بهذه الطريقة. لقد كنت تشعر أن تاريخك الذي مضى لا يجب أن يخلّد أبدا فكلها اخفاقات لا يعتد بها. في كل مرة تبتدئ عملاً جديداً ترجوه ان يكون عملك السامي، الذي يرقى بك لمستوىًأقرب ما يكون الى الكمال. وها هي صبا تشعر بسموك الذي غفلت عنه. لماذا مات قلبك هكذا ؟ ، لماذا لم نلتقِ قبل الآن يا صبا؟ من الذي منعكِ عني كل هذا العمر.
نظر إليها وهي ترمقه بعيونها، تكاد تلتهمه من شدة الشوق. ابتسامة ثغرها تضيء في ظلمة روحه البعيدة. اكتشف أمامها أن أعوامه المديدة ليست سوى أعوام قضاها في سجن كبير.

-" لماذا تنظرين إليّ هكذا ؟ "
-" سعيدة "
-سأل متعجباً." بماذا ؟ "
-" بوجودي أمامك ، بحظي السعيد ، باستطاعتي الحديث معك ، تلك كانت امنيات حياتي التي لا أريد سواها "
-" كم عمرك ؟ "
-بخجل شهّي " توقّع "
-" لا أحب لعبة التوقعات هذه "
-" لماذا تتحدث و أنت حزين هكذا ؟ "
-" وما الذي يدعو إلى البهجة في أيامنا هذه ؟ "
-أشارت بيدها إلى النيل " وجودك بقرب نهر مثل هذا سبب كافي للبهجة "
-" أنتِ شاعرة ، كم عمرك ؟ "
-" تسعة عشر عاماً ، أو ربما تسعون !"
-" كيف ؟؟ "
-" القارئ ينضج عاماً كلما أنهى كتاباً "
-" وكم كتابا قرأتِ ؟ "
-" كل أعمالك ... "
-" رواياتي الرومانسية الحزينة لا تضيف إلى عمرك بل تنقص منه زمن قراءتك لها "
-" حزنك لم يكن مجرد سطور في الروايات إذن، إنما هي حالة تسيطر عليك "
-" الكاتب الذي لا يكتب شيئاً منه لا يستطيع الوصول إلى القارئ "
-" وكتّاب الرعب ؟؟ "
-.....

نظر إلى عينيها مباشرة وهي تلقي عبارتها الأخيرة تحدياً له لكنه لم يستطع إبداء جواب لسؤالها فالتفت إلى النيل الذي رقصت بين ذراعيه أشعة الشمس ... الشمس لا تخجل كل يوم من الرقص في قلب النهر،

ولا تخجل من مضاجعته على مرأىً من البشر، ذلك لأن البشر أحياناً لا يفقهون ما تفعل، لكنها تبدو ساذجة إذا اعتقدت ان جميع البشر لا يفهمون، وإذا اعتقدت ان أمرها لم يفتضح بعد ..

-"كاتب الرعب يا صديقي يكتب لنا مخاوفه ، لأنه يخشى ان يبقى خائفا وحده، هدفه هو الحصول على أكبر كم من القلوب الخائفة التي تؤنس وحدته داخل الخوف "

-" انتِ حقا فيلسوفة "

-" تلميذتك النجيبة يا سيدي "

رنين هاتف يقتحم خلوته بها أمام النيل الغارق في مجون الشمس ، نظر إلى هاتفه مرتبكا ، والناس ما زالوا يتابعونه من بعيد بنظرات السخرية ذاتها ..

-" أهلا .. "

-.....

-" آه ، لا لا لم انسَ"

-.....

-نظر لساعته " حسنا فقط ساعة وسأعود "

-.....

-" إلى اللقاء "

أغلق هاتفه ووضعه في جيبه ، نظر لها ولهفة تطل من عينيه ، خوف غريزي تجاه وقوفها على السور الفاصل بينهما وبين الماء ، نظرت إليه ووجهها يرسل إليه سؤالاً وجودياً قاتلاً

" هل تملك القدرة على القفز من هنا ؟ " ... لم يجد رداً لهذا السؤال الذي لم تنطقه ، وقد حمد الله بقلبه أنها لم تنطقه ، قال بصوت خائف،

-" ستسقطين في الماء "

-" و أموت ؟؟ " ثم ضحكت ضحكة مائعة داعبت نفسه الخائفة وذكرته بأنها ماتت من قبل ..

-" أراكِ تهزئين بالموت جداً "

-" كما كنت تفعل في رواياتك "

-" لكن هذه مجرد روايات ، خيال "

-" لكن حياتنا ليست سوى رواية كتبت في كتاب كبير وضعه الله ، ونحن لا نفعل شيئا على هذه الأرض سوى أداء النص "
-" حقا ؟؟ " شعر بأنه سمع حديثها قبل الآن ، قناعة قوية بداخله تشعره بذلك .
-" أنت من علمتني ذلك في روايتك الأخيرة "
-" آه ، تذكرت "

مد يده ليخرج النقود من جيب سترته وانهمك في عد الجنيهات التي بعثرت تماماً في حافظة نقوده ، وضع المال فوق الطاولة ورفع رأسه قائلا :
-" هيا بنا.. "

لكنه لم يجدها. اختفت مجدداً، أو ربما سقطت في الماء. اندفع وراء هاجسه ناظراً إلى الماء الرائق. الماء تغطيه النشوة، وهو تغطيه الدهشة وتغمره رعشة تشبه رعشة الحب الأول.
فكر وهو يعبر الشارع ، كيف لامرأةأن تحفظ فلسفة رجل لم تره أبدا ، أن تحيا بمبادئه؟ فكر وهو يدخل إلى البقالة، كيف يكون الانسان قدوة دون ان ينتبه؟ تذكر العبارة التي قالتها صبا في فخر .. متى كتبها؟!!في حقبة من الزمن الأسود في حياته. لم يأبه بما ستؤدي إليه العبارة قالها في غضب عندما لم يجد بداً من مواجهة نفسه بأن حبيبة من حبيباته لا تفعل شيئاً سوى التمثيل عليه قبل أعوام ..يكاد يذكر القليل من ملامحها. كانت شقراء، نحيلة، ترتدي دائما عقداً من اللؤلؤ. أَحَبّها ولكنها استنزفت امواله، وغادرت شقته ذات ليلة تبكي وقد انفرطت حبات اللؤلؤ بعد محاولة عنيفة منه. كم كان شقيا ؟! ترى هل بالفعل تركته لأنها لم تحبه أم لأنه كان عشوائيا فوضوياً ؟؟ .. جلس إلى الأوراق حينها عارياً. كتب المشهد منتهياً إلى العبارة الفلسفية " حياتنا ليست سوى رواية كتبت في كتاب كبير وضعه الله ..."
هل كان يدرك في لحظة العري تلك أنه سيستمع إلى العبارة ذاتها من فم صغير على ضفة من ضفاف النيل في صباح يشبه الخريف كثيراً ؟!

بحث عن قائمة الطلبات التي أملتها عليه زوجته ، أضاف إليها واحدة من الشوكولاتة. بحث في البقالة عنها.

الأطفال حوله يلعبون. لم يجد لنفسه مبرراً مناسبا لهذه الشوكولاتة، فقرر ألا يفكر في مبرر لها.
غادر وهو ينتظر حضورها ، لكن انتظاره جعله يتساءل إلى أين تذهب ؟؟ !
أين تعيش الأرواح ؟ وكيف نستدعيها ؟؟ شعر بصداع شديد يعصف برأسه فمسح على شعره مخللا أنامله بين الخصلات المبللة ..كان وسيماً ذات يوم، لكن ليس الان .

الحنين

آخر ما قد يساوره هو أن تكون حوله ولكنها مختفية ، كلعبة من ألاعيب العفاريت ، نظر لنفسه أمام المرآة في الحمام وشعر بعينيه تدور مرتبكة في أركان الحمام في سقفه الأبيض وفي ضوء المصباح الأبيض جانباً ، في ذلك الظل المنبعث من وراء المصباح. في حوض الاستحمام. نظر إليه .. حدق فيه. احتاج هاتفه. شعر بمدى جنونه.

مد يده وفتح المياه الساخنة سهواً ثم أغلقها سريعا ، يقينه بوجودها أوحى له بأن الماء الساخن قد يؤذيها ... آه لسذاجة افكارنا ، بدا صراع قوي ينشب بداخله. نصف عقله يدافع عن الفكرة مستشهداً بوصايا أمه قديما ألا يسكب ماءاً ساخناً في الحوض بدون تسميه ، والنصف الآخر يضحك سخرية من حافة الجنون التي وقف عليها .

بدأ اعتقاده يقوى فتحول من شك يساوره إلى يقين يرسخ بداخله. خجل أن يخلع ملابسه جميعاً لأنها هنا .. هنا في أي مكان وقد يكون هذا المكان في عقله فقط !

نزل إلى حوض الاستحمام وفتح الماء برفق حتى حصل على درجة حرارة مقبولة لجسده. الماء الساقط على شفتيه يداعب رغبات منسية بهتت تحت غبار الفكر والقراءة .. زوجته لا تسعى إليه. لا تراه إلا بواباً يجلب المال أحيانا والأشياء من المدينة. قد تكافئه مساء كل زيارة إلى أمها بقبلة سريعة.

منذ قرابة عام، غادر وهو يعزم على ارتكاب جريمة قد تعدها زوجته الجنون بعينه. لماذا نفقد شهيتنا إذا ما غادرنا من نحبهم ؟ .. سؤال أطل من عينيه أمام الفراش وزوجته التي ارتدت جلباباً فضفاضاً فقال بامتعاض ..

-"هل تستعدين لمقابلة أحدهم ؟ "

-"لا ، لماذا ؟ "

-"لأني أراكِ بجلباب طويل واسع وكأنك تخجلين مني ! "

-ابتسمت وظهرت على ملامحها الهادئة دهشة مغلفة بشئ ما .. قالت: " لأول مرة تعلق على ما ألبس "

-"لم نكبر بعد "

-"لكنك لم تعد كما كنت"
-"ها قد عدت"

قامت المرأة وقد احمرت وجنتيها وشعرت بأن حياة ما تدب في روحها. إذا ما احترمنا الحزن، سكن فينا وأعلن عن جمهوريته العتيقة على أرضنا.
كان رحيل أمه موجعاً للحد الذي أفقده شهيته في ممارسة الحياة. لمس في زوجته احتراماً كبيراً لحزنه، لكنها للأسف لم تتوقع أن الحزن الذي انحنت أمامه كي يمضي. ظل جاثماً فوق ظهرها فاعتادت أن تقف منحنية من أجله.
شعر أن الزمن يسقط من فوق كتفيه؛ وشعور آخر ينبض في قلبه. هي، أين تقف وماذا ستقول عن كاتبها المفضل؟ هل ينبغي عليه أن يجعلها تشاهد مشهداً كالذي يستعد إليه ؟؟تساءل للمرة الأخيرة .. ما السبب وراء الأفعال التي يمضي في فعلها هذا اليوم؟ لقد أذاب كأس المثلجات ثلوجا من الحزن في نفسه. انصهرت كهولته الزائفة فعاد شابا.
أسبوعٌ مضى. بات كل ليلة ينتظر ظهورها، لكن هاجسا مخيفاً كان يساورهأن تكون صبا مجرد وهم نتيجة تركيزه واجتهاده في روايته الأخيرة فقط . لا يمكن أن تكون كذلك.
الإنزعاج الذي تركته في نفسه لا يساعده على تصديق كونها مجرد وهم. ذهب إلى هناك. بحث عنها، ترقب ظهورها وهو يتمتم بالفاتحة. شم عبقاً يعرفه، يعشقه. عبق أمه الراحلة. إنها ترقد بالداخل. يشعر بالشوق إلى حضنها.أخرج من جيبه مفتاحاً صغيراً. نظر إلى القفل الموضوع على باب المقبرة. رغبته تقوده إلى فعل ما لم يتوقع فعله ذات يوم.
فتح القفل والباب ودخل إلى الظلمة. الجو بالخارج نهاراً هادئٌ. لا أحد بالمقابر غيره. في الزاوية كفن أمه ، وفي الاخرى كفن أبيه .. لم تساوره وحشة كالتي يشعر بها في هذه اللحظة. حزن يغلف خوفه وارتعاد نفسه. بالرغم من ذلك فقد تمدد بجوار الكفن واقترب منه قدر ما استطاع. اشتاق إلى أمه أكثر.أجهش ببكاء لم يجد له سبباً. تمنى أن تظهر صبا في هذه اللحظة أو أن تعتدل أمه في جلستها وتضمه على صدرها. تذكر كلمات صبا .. "كاتب الرعب يشاركنا مخاوفه " ... لقد عاش أسبوعاً بدونها والآن قاده حنينه إلى مقبرة أمه لعله يلتقي صبا بالرغم من أنها لم تقضِ معه سوى ساعة من نهار !!

صوت طرقات بالخارج وحديث ينطقه أحدهم بتأفف وغضب. قام مسرعاً. يبدو أن الغفير قد جاء. صوت حوقلة متتالية. خرج من المقبرة ليقابله الرجل بهيئته الرثة وشاربه الكثيف، وعمامة متهالكة على رأسه الأشيب ووجهه العجوز.

-" بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، حضرتك كنت بالداخل ؟ "

-" أجل "

-" كنت سأغلق الباب "

-" جئت لرؤية أمي يا عم توفيق ، اشتقت لها "

-" إقرأ لها الفاتحة ولا تفعل ما فَعَلْتَه مرة أخرى. للموت احترامه يا سيدي "

-" لكنها أمي .. "

تركه الرجل ورحل فاغلق المقبرة ورحل بدوره. مشى تائها بين شواهد القبور المُوَشّاةِ بأسماء أصحابها وتواريخ وفاتهم. "للموت احترامه" .. عبارة مهينة وتبدو قاتلة.

ذهب إلى مكتبه الحبيب وجلس يسترجع جلستها وابتسامتها وكلماتها. لم تمض دقائق، وهو يتذكر باسما،حتى حضرت بالفعل !

بذات الهيئة البيضاء لم يستطع فهم كيفية حضورها إلا أنها باتت بجانبه فجأة ...

-"اشتقت إليك "

-" وأنا أيضاً .. أين كنتِ ؟ "

-" كنتُ .. لا أعرف "

-" بحثتُ عنكِ كثيراً "

-" أين ؟ "

-" أنا عائد للتو من المقبرة "

-" ومن أخبرك أن الأرواح تسكن بالمقابر ؟! "

لم يجد لسؤالها المباغت أي رد. لماذا يشعر برفقتها أنه طفل يتعلم أبجدية الحياة من جديد ؟

كانت تبدو أكبر سناً من المرة السابقة وأكثر جدية أيضاً. همس وهو ينظر إلى سكونها

-" كيف تقضين فراغك ؟ "
-" لا أملك فراغاً يا صديقي "
-" تقولين صديقك ؟ "
-" بالطبع "
-" كنتِ تقولين أنني لم اكن مجرد كاتبك المفضل ..؟ " تبع عبارته بنظرة خبيثة تجاهها
-" آآ ، بالطبع لم تكن فقط مجرد كاتب في نظري ، لقد كنت قدوتي ومثلي الأعلى. كنتأقرأ كل مقولاتك في الروايات وأنسخها في ملاحظات وأعلقها على جدران غرفتي وفي صفحات دفاتري ..."
-" مهلا ، هل تدرسين .؟ "
-" كنت في نهاية الثانوية "
-" آه ، وماذا بعد ؟ "
-" تعال لنذهب في رحلة إلى عالمي "
-" عالم الأرواح ! "
-" أقصد دنيتي السابقة "
-" كيف ؟ "
-" ليس بالضرورة ان يكون لكل شيءٍ كيف ".

منزلها

وقف عمر مندهشاً أمام المكتبة التي تئن من كثرة ما بها من كتبٍ. كتبٌ قديمة وأخرى جديدة. دفاتر مبعثرة، وصورة له منذ ما يقرب من خمسة عشر عاماً. شَعرُه الأسود وعيناه البنيتان ولحيته المهذبة وحاجباه العريضان، مرتدياً بزة سوداء، بدا في الصورة كقس يتلو ترنيمةً في كنيسةٍ. يمسك الميكروفون بيده وينظر إلى أحدهم. ابتسم أمام صورته والتفت يكمل جولته في الغرفة.

سرير نحيل يقف في وسط الغرفة معترضاً على الفوضى التي تحدث هنا. ملابس معلقة على مشجب وراء الباب.مكتب قصيرعلى جانبه يقف مصباح حزين. هناك في الزاوية مرآة كبيرة وأدوات زينة مهجورة وعلب دواء كثيرة متناثرة. خزانة الملابس حائرة هل تختبئ منه أم تعلن عن ذاتها ! إحدى دلف خزانته مفتوحةٌ والأخرى مغلقة يطل منها فستان امتلأ بالزهور الصغيرة. بدا الفستان كربيع مهمش وسط فوضى الشتاء التي ضربت الغرفة.

صوت بكاء ينبعث من وراء الباب المغلق. فزع عمر لذلك والتفت يمينة ويسرة يبحث عن صبا ، لكنها لم تكن حوله. البكاء يقترب من الباب. امرأة مهمومة تبكي وترسل الدعوات إلى السماء مرفقة باسم صبا. لا يعرف إلى اين يذهب .. قفز بحركة لا إرادية فور رؤيته لمقبض الباب يتحرك. اختبأ بين فساتينها. غرق فجأة في عبقها، رائحتها ، ذكرياتها. تبدو خزانتها كعالم تحت الماء ، بديع ، بارد ، موحش. امسك بقطعة ملابس وأخذ يتحسسها بين أنامله . ترى كيف كانت وهي مرتديةٌ هذه القطعة. ابتسم لفكرة مجنونة لمعت في رأسه ثم التفت ليجدها امامه. صبا، في حجم الكوب، تراقصت أمامه في الفراغ الضيق وهو داخل الخزانة. وقفت واضعة يديها حول خصرها وعلى وجهها نظرة غاضبة.

همس لها -" ما بكِ يا صغيرتي؟ "

-" ماذا تفعل في خزانتي ، وبماذا تفكر؟ "

-" خشيت أن يراني من يفتح الباب "

-" إنها أمي. إنها تدخل إلى هنا كل يوم تهبني قدراً من الحزن والحسرة ثم تخرج إلى أخي "

ضحكت بعد انتهاء العبارة، بعدما كانت ملامحها جداً حزينة مما جعل عمر أقرب إلى الجنون وهو يحدق فيها.

صوت بكاء أمها يتعالى. نحيب وعويل.
-" آه يا طفلتي. يا رب ردها إلى قلبي. يا رب لن اسألك أي شئ مرة أخرى، فقط ردها إلى قلبي. آه يا بنيتي. كاتب الشؤم اللعين. كم قلت لكِ يا صغيرتي أنني أخشى عليكِ. ها أنت تقتربين كل يوم من الموت بسبب الكتب.ألا لعنة الله على الكتب. آه يا طفلتي ، آه يا قلبي ، آه على حسرتي "

ارتبكت صبا أمامه وهو يسترق السمع وتتقلص ملامحه. ظل يستمع إلى بكاء أمها ونحيبها وهو مطرق وعلى وجهه حزن يغرق المدينة. مدت يدها الصغيرة تربتُ على كتفه وقالت:
-" لا عليك، أمي فقط جريحة القلب لكنها طيبة جداً وتحبك"
-" تحبني ! "
-"كل من يعرفني يحبك ، لأنك حبيبي "
-" حبيبك ؟"
-خجل يموج في وجهها الطفل. خفضت رأسها واتجهت متحركة في الفراغ الصغير حتى استوت جالسة على كتفه وهمست " أجل ، حبيبي "
-" هل أحببتِني فعلاً يا صبا؟ " .. شعور باللهفة لم يكن طبيعياً دفعه لهذا السؤال وهو ينظر لكتفه وهي تجلس بحياء ورقة لم يعهدها من قبل .
-" لم أجد رجلا أحق بمشاعري غيرك "
-" أنتِ طفلة يا عزيزتي "
-" لا تقل طفلة " غضبت صبا من نعته لها بكلمة طفلة ومدت يدها لتضربه ، لكنه بأي حال من الأحوال لا يشعر بها ، أو ربما لا يحس بأي ملمس جسدي إلا أنه يشعر بها في روحه .. انتهى صوت النحيب مختوماً بصفقة الباب. خرجت أمها من الغرفة .

خرج هو بدوره من الخزانة ووقف يلتقط أنفاسه، ثم جلس إلى الفراش وأخذ يتأمل الوسادة المزينة بقلم أزرق. حزن خفي يسري في ملامحه وهو يتلمس الوسادة. زهور رقيقة رسمت حول اسمه وقلوب صغيرة متفرقة بها أسماء رواياته، وشخوص يعرفهم بإحساسه .. همست وهي تتأمل معه.
-" هؤلاء أبطال أحببتُهُم في رواياتك "

-" شعرت بذلك "
-" أتعرف ! .. هذه مارية ، راق ليشَعْرها ، حزنها ، إخلاصها لحبيبها حتى بعد موته. كنتَ حقيقياً جداً في هذه الرواية بالرغم من أنهم قالوا عنك أنك واهم وخيالي. كُتِب عنك حينها أنك حالم جداً "
-" أجل أتذكر ذلك ، لكن لم أفهم ما قصدتيه بحقيقي جداً ؟"
-" أقصد أنك كنت تكتب أموراً طبيعية لا ينبغي أن يحدث غيرها في العالم "
-" لكن الواقع أحياناً يختلف "
-"الواقع نحن من نصنعه "
-" ذاكرتك قوية جداً " .. ابتسم عمر وهو يخبرها بأن ذاكرتها قوية لأنها تتذكر عباراته ومقتطفاته الخاصة.
لم يستطع منع نفسه من الشعور بالسعادة والفخر أمامها. تركت كتفه وجلست بجواره. همس وهو ينظر لها بأسىً.
-"كنت أتمنى رؤيتك في ظروف مختلفة عن هذه "
-" لكنني لم أندم على شئ. ربما لو كنا التقينا في الحفل ما استطعت الوصول إليك".
-" وربما حدث أمر آخر"
-" لا أظن "
-" هل كنت مغروراً إلى هذه الدرجة ؟ "
-" كثرة مريديك ، فكرك ، حياتك الشخصية التي حتما ستكون عامرة بأشياء تحبها ، كل ذلك كافٍ لأن تكون مغروراً"
-" لكنني لست بالشهرة ولا القيمة التي تريننى بها "
-"أنت فقط متواضع "
-"لا بل أعني ما اقوله حقاً "
-" عمر .. لا تهزأ بي"

لماذا يبدو اسمي فاتناً هكذا؟ المناقشة معها ممتعة حد الثمالة ، بالرغم من صدقها المتناهي إلا أنني لا اكاد أصدق ان كل ذلك يحدث لي .. ها أنا ذا أجلس بغرفة في منزل لا أعلم اين يقبع على وجه الارض ، وتتناهى إلى جلبة آتية من الخارج. مكتبتها رائعة ، أشياؤها مثيرة للشجن ، عبقها العالق في كل ركن من أركان الغرفة يثير

دهشتي. ترى لماذا نعيش في عالم مجهول إذا ما كان هناك من يحبوننا بهذا النقاء ؟!
لا أظن أن هناك سببٌ للحزن إذا ما وجد الانسان من يعشقه لدرجة الموت .. لم يشعر عمر بالنهار الذي ينقضي وهو عالق بهذه الفتاة والحديث ينساب من بين شفتيهما في تحدٍ واستمتاعٍ بالغين .. الليل في شدة بهاءه. عليه العودة الآن.
-" لابد ان نعود إلى منزلي "
-" حسناً،سنعود ولكن دعني أطلعك على شيءٍ أخير "
-" حسنا ، لنرى"
-" آآآ ، عمر يا حبيبي، هل يمكنك ان تفتح الدرج القابع بجوار الفراش ؟ "
-اندهش عمر من لهجتها الآمرة وغنجها غير المعهود، كما أن الأمر يبدو مضحكاً إذا عجزت عن فتح الدرج ولكن نجحت في نقلي من منزلي حتى هنا .. " هذا ؟؟ "
-" لا تفكر هكذا ، أخبرتك أن بعض الأشياء ليس لها كيف "
-دهشة أخرى ، كيف تستطيع سماع أفكاره ؟! " ما هذا الدفتر ؟ "
-" بدأ الخوف يفوح من صدرك يا صديقي ، صدقني لست شريرة "
-" لم اشعر بالخوف منكِ ، خانتك قدراتك " مبتسماً
-" افتح الدفتر، ستجد شيئاً اتمنى أن يعجبك "
دفترٌ يحوى بداخله صفحات رسم ، في كل واحدة رسمة له ، أوضاع مختلفة لم يكد يعرف نفسه في بعض اللوحات ، لكن البهجة التي تجتاح نفسه شهية بمذاق عجيب .
-" هذه لوحاتك ؟ "
-" نعم "
-" أنتِ فنانة حقاً "
-" انتَ مبالغ جداً "
-" لم أكن أعرف أنني وسيم بهذه الدرجة "
-" أنت تُخجِلني "

صبا تموج في سعادة أمامه ، بالرغم من كونها روح إلا أنها تشتاق لأن تحتضنه بكل ما أوتيت من قوة، ترى ما

العيب في أن تضمه إلى صدرها الآن !! رغبتها تكاد تقتلها. ولن يكون هناك حل إذا ما قتلت مرة أخرى. نظرة خبيثة أطلت من البحر الساكن في عينيها قبل أن تلقي بجسدها معدوم الوزن على صدره. صغيرة جداً بحجم قلم، اقتربت من قلبه. مد يده بتردد تجاه ظهرها ، لا يستطيع لمسها. قشعريرة بدت معتادة من التكرار، لكن دفء قلبها يصل إلى روحه، نبضها القوي يُسمع قلبه، نبتت في مقلتيه دمعة لم يعرف لها سبباً .. كم لوحة رسمت له ! ، كم ريشةً هامت في ملامحه ! ، إلا أن لهذه اللوحات تأثيرٌ بليغٌ ، متى رسمت هذه اللوحات؟ كم ليلة مضت عليها وهي غارقة في تفاصيلي وأنا غارق في صناعة النهايات ؟!! ..

رحلا من الغرفة. عادت به دون أن يشعر. عاد إلى مكتبه مرة أخرى و بيده اللوحات .. نظرت إليه وهي تجلس بجواره على الأريكة المحببة إلى قلبه ، بحجمها الطبيعي تنظر إلى عينيه الممتلئة بالدهشة ..

-" سعيدة لأنها أعجبتك "

-" نادم لأننا لم نلتق قبلاً "

-" أمامنا عُمرٌ مديد "

-" كيف ؟ "

-" لا تفكر في الكيف يا صديقي "

-" صديقك مرة أخرى ؟ "

-" الصداقة أعمق من الحب وأكثر نقاءاً "

-" عقلك يكبرك كثيراً "

-" الموتى يكبرون رغماً عنهم "

-" أنتِ حياة "

-" وأنت صانعي "

صوت زوجته يأتي من الخارج. غاضبة تبحث عنه، تناديه وتُنزِل على كتاباته وكتبه اللعنات .. شعر بالضيق حيال زوجته وغضبها المستمر. نظر إلى صبا التي تبدلت ملامح النقاء في وجهها إلى ملامح حزن قاتمة، كانت تتلاشى أمامه وعلى وجهها بكاء طفولي .. حاول استدراكها ومنعها من الرحيل عنه لكنها لم تستجب.. هتف

بلهفة
-" انتظري يا .. "
لم تنتظر ، تلاشت كحبة مطر تحت الشمس ولم يبق منها سوى عبير يسكن رئتيه وأوراق بين يديه تبدو شديدة الجمال.
فتح الباب ودخلت زوجته، هيفاء تقف بجانب الباب .. ملامح هادئة ، شعر مصفف، فستان أنيق مختلف عن جلبابها الدائم .. ابتسمت وهي ترمقه بنظرة ذات معنى.
-" أين كنت ؟ "
-" هنا "
-" متى عدت ؟ "
-" منذ قليل "

اقتربت منه وهي تنظر إلى الأوراق بيده، عرق يلمع على جبينه كما تلمع نظرة سعادة في عيني زوجته ، أمسكت الاوراق بين يديها ، لم يكن يرد ذلك ، ارتبك وبدا مستاءاً لمجيئها
تساءلت بدهشة :
-" عجيب !! ، من أين لك بهذه الرسومات ؟ "
-"أرسلهم لي أحد قرائي"
-" قرائك فعلا ؟! " صحب سؤالها وجوم يسبق جلسات التحقيق عموماً ، واستحال الوضع من مجرد زوجة تتفقد زوجها الكهل إلى وكيل نيابة صارم يسأل متهمه المقبوض عليه متلبساً بجريمة شنعاء ...
-" نعم "
-" لكن توقيع صغير على هذه اللوحة باسم صبا ! "
- اللعنة .. لقد وقعت في فخ الشك ؟ "هه .. نعم إنها ابنته ، لما رأي اللوحات مقبولة ارسلها لي ، هو صديقي وهي ابنته "
-" آآمم ، تبدو فنانة جداً ، ولكنها لم تكن دقيقة في رسم تفاصيلك "
-" إنها في النهاية طفلة "
-" لوحة جيدة " ... ألقت اللوحة من يدها على حافة المكتب وهي في حالة غضب، الغيرة أمر رائع، لكنالغيرة

من طفلة أمر مثير للغضب و يا ويلتي إن أخبرتها بحقيقة الأمر ، ستتهمني بالجنون ، من الأفضل بقاء الأمر سراً ..
الكذب في الخمسين من العمر أمر مشين، لكنه في الوقت ذاته أمر لذيذ ، ستكبر كذبتي ذات يوم وتتحول إلى واقع ، تلك أمنيتي .

غادرت الزوجة وهي تلقي إلى زوجها أمراً بالحضور إلى سفرة الطعام بعد ما ماتت الفرحة التي دخلت برفقتها أمام اللوحة المرسومة.قام عمر إلى الطعام وهو مشبّع بالنشوة ، ولم يجد لها بالطبع سبباً.

لعبة عيد الميلاد

أفكر في نقاء الراحلين واندهش
كم يحبهم ربهم !! .. حتى ينعم عليهم بالرحيل وهم ما زالوا أنقياء
عامي الخمسين يودعني في ليلة ميلاد هادئة. زوجتي ترمقني بذات النظرة التي تحمل من المعاني الكثير. تظن أن الليلة ستكون من حظها لكنني أود ان تكون الليلة من حظ صبا. اشتقت لمحاوراتها الشيقة .
صعدت لأعلى. تصورت أنها تراقبني وتغار على كهلها العجوز من امرأة تكاد تكون في عمر أمها. خيّل إليّ أنها تخبئ وجهها بكفيها الصغيرين وتبكي. ظللت ألتفت يمينة ويسرة لكنني لم أجد لها أثراً.. لذلك تجاهلت هاجس وجودها وتركتني لزوجتي تفعل بي ما تشاء.

من الممتع ان تحتفل بعيد مولدك عارياً كما أتيت إلى الحياة. في مثل هذا اليوم منذ أعوام بعيدة كنت أصرخ في زاوية شبه مظلمة بين ساقي أمي. لا أكاد أذكر تلك الليلة لكنهم جميعا يذكرون. نشرة الأخبار في الصباح سترسل خبراً يحمل لي أمنية بعام جديد من السعادة والابداع، وسأذهب إلى الجريدة التي توليت إدارتها لأجد باقات من الزهور مصفوفة تنظر لي نظرة شامتة .. إنهن يرمقنني بعين ضعيفة تقول .. يا لك من معمر عشت أعواماً طويلة بينما أعمارنا الأنيقة قد لا تتعدى بضع ساعات ضاعت منك في النوم.

لا شئ أجمل من ان تحتفل بعيد مولدك برفقة روح مثل روح صبا.إن هذا العام يحمل لي مغامرة جيدة عنوانها " الصبا ".. لكن اين هي .. لا أصدق انها ستنسى عيد مولدي.
انتصف الليل ودقت الواحدة، انبعثت موسيقى صوفية من الاسفل. إنها المرة الاولى التي ينبعث فيها صوت كهذا في منزله ، أيُعقل أن تأتي بطقوس خاصة لليلة كهذه ؟! .. اتسعت عينا عمر وهو تحت الماء يغتسل متطهرا من شباب يلحق به في المساء فقط ... غادر سريعا ليرتدي منامته المحببة. هتفت زوجته بتثاقل تسأله إلى أين سيذهب في هذه الساعة فقال ..
-" لدي فكرة أريد كتابتها "
-" الآن ؟"
-" ذلك هو أفضل وقت للكتابة يا عزيزتي "

-" الكتابة ستقتلك ذات يوم "
-" بل ستحييني .. تصبحين على خير سيدتي "

أسرع ليغادر الغرفة مغلقاً وراءه بابها غير آبه بما ستقوله زوجته. وفي واقع الامر هي لم تقل شيئا، بل خلدت إلى نوم يتوّج ليلتها السعيدة.
سعيداً هرع إلى باب مكتبه كي يدخل متخيلاً عروسه الصغيرة تتمدد في غنج ودلال فوق المكتب بشعر يطيره الهواء الآتي من النافذة .. الضوء خافت جداً ينام على وجنتيها ليظهر مفاتن وجهها ويجرده من البراءة التي عهدها بها .. لها جسد مرن كالشمع ينحني بتمرد على فستانها الأبيض الحريري .. هدأت خطوته وابتلع لعابه ووقف كما لو أنه ينهر ذاته ، كيف له ان يتخيلها بهذه الصورة الماجنة .. لماذا لا يتحرك فيه سوى غريزة افتراس حيوانية ؟؟
لعن نفسه آلاف اللعنات وغدا في بهو المنزل وراح حتى خفتت ملامح الصورة التي رسمت في مخيلته ، وهدأت اعصابه الثائرة .. لم يكن يفهم ما يدور بخلجات نفسه من تضارب حاد في المشاعر.أمسك بقبضة الباب والموسيقى ترتفع في إغراء غريب له أن يدخل .. ففتح الباب برفق ثم شخصت عيناه ..!

لم يجد مكتبه ولا النافذة التي تطل على الفراغ ولا سجادته الحمراء العزيزة. الجميع ذهبوا. رحلوا عن عالم مكتبه. وحتى أريكته التي شبعت بأحلامه وأفكاره، لم يعد لها أي اثر ولم يبق سوى ساحة بنية من الفراغ يطل من أمد بعيد فيها نورٌ شديد البهاء. بدت غرفته كفضاء شاسع وبدا الضوء البعيد كالشمس. تلك الشمس التي ضاجعت البحر مرات ومرات أمام ناظريه تختبئ الآن في غرفته. الموسيقى ترتفع وترفعه معها حتى أحس بأنه يفقد وزنه.يهيم ولا يملك السيطرة على جسده. أُدخل إلى الساحة و أُغلق الباب من خلفه وأختفى الباب .. وذابت معالم الكون الذي يعرفه فوجد نفسه يدور دورات لم يفقه سرها. ومن ذات الضوء البعيد انبثقت صبا. قبس من الشمسالقابعة بعيداً. سقطت وتدحرجت فوق الأرض البنية ثم في معجزة أدهشت قلبه تحولت من مجرد شظية نور إلى حورية يعرف تفاصيل جسدها جيداً. دارت معه. كانا يرقصان رقصة يعرفها. ينظران إلى بعضهما كلما اتفقاأن يلتقيان.
كيف مرت الساعات وهما يرقصان؟ لا يعرف كيف لم يستمع إلى هذه الموسيقى ، وربما استمع لها ولكن لم ينتبه. السعادة التي تغرقه لم يشعر بها من قبل.جلس إلى الارض وهو يلهث فجلست بجواره ،ترتدي تنورة

متسعة جعلتها تبدو بجواره كزهرة دوار الشمس الذهبي. كانت بيضاء مشربة بحمرة شهية. خصلات شعرها متناثرة حول وجهها ، تبتسم له وهي تلهث بدورها.

الدوار الخفي الذي يسري بجسده يشبه حالة سكر لذيذة. همست وهي تنظر إليه ..
-" ميلاد سعيد يا صديقي "
-" سعيد لأنكِ معي "
-" اعذرني لأني تأخرت "
-" تأخرتِ تسعة عشر عاما يا صبا "
-" هيا لنلعب لعبة "
-" أي لعبة ؟ "

انسكبت بجواره على الارض الباردة بجسدها النحيل وهي تنظر إلى السماء. القمر يطل على الأمسية الخلابة ويضحك وحيداً ، فتمدد هو بدوره بجوارها ونظرا معاً إلى السماء ...
-" سؤال وجواب ، وفي قول آخر نوستالجيا "
- " نوستـ ماذا ؟ " تقلصت ملامحه ولم يستطع نطق الكلمة التي يذكر جيداًأنه سمعها قبلا ، مرت عليه ربما في محاضرة علم نفس ، ربما في رواية ، ربما في الجريدة من أحد المحررين .. مرت عليه حتما لكنه الآن لا يستطيع الوصول إليها .
-" نوستالجيا ،، هي الحنين إلى الماضي يا صديقي "
-" لا أحب التفكير في الماضي يا صغيرتي "
-" الانسان بلا ماضي شجرة بغير جذور. ومن لا يملك جذوراً لا تمتد له فروع "
-" يبدو أن الكاتب الهَرِم الذي تحبينه أفسد لكِ عقلك "
-" لا تنعته بالهِرَم من فضلك ، فأنا أحبه "
-" لماذا ؟ "
-" إذن فقد بدأت اللعبة ؟؟ " .. نظرت إليه مبتسمة وفي عينها شغف وتحدٍ وجنون ، بادلها عمر ذات النظرة وقال بلهجة مرحة ..

-" نعم ، أحب اللعب معكِ ، هيا اعترفي ، لماذا تحبينه ؟ "
-" من هو ؟؟ " قالتها بدلال ومرح ثم ضحكت ضحكة رائقة.
-"الكاتب الهَرِم " ثم تبعها هو الآخر بضحكة قصيرة وغمزة ذات معنى .
-" آآآه .. الحب لا يكون حبا إذا ما عرفنا له سبباً "
-" متى التقيتما ؟ "
-" منذ خمس سنوات .. كنت في المرحلة الإعدادية آنئذٍ "
-" كنتِ صغيرة جداً "
-" وكان هو أكبر ما لدي ... " تنهدت وهي تنطق عبارتها فالتفت إليها مفتقداً صوتها الرقيق ، ليجد دمعها يفيض من عينيها على جانبي وجهها وهي محدقة بخشوع نحو السماء التي تجردت من نجومها.

ليت ما يحدث الآن لا يتوقف أبداً. اعتدل عمر من مرقده واتجه نحوها في حركة لا إرادية جاثياً على ركبتيه يحاول ان يمد يده ليمسح دموعها لكن دون جدوى .. تغوص أنامله في كيانها الشفاف فلا يقدر على مسح دموعها. فقط رعشة تسري بأنامله ممتدة إلى عقله. على مدار خمسين عاما لم يساوره شعور بالعجز أكبر من شعوره في هذه اللحظة .. نهنهت بين يديه باكية. لم يستطع فهم بكاؤها. ظل قائماً امامها ينتظر منها ان تهدأ او أن ينتهي بكاؤها .. قالت برفق وهي تَربِتُ على فخذه بحنان ..
-" أنا بخير لا تقلق "
-" بخير ؟! .. يؤلمني بكاؤكِ "
-" الذكرى تؤلم أكثر "
-" أي ذكرى "
-" هيا لنلعب "
-" نلعب ؟! ...حسنا "
-" سأسرد لك ما يمكنني سرده من قصتي وانت كذلك ، اتفقنا ؟ "
-" اتفقنا ، هذه هي النوستالجيا ؟؟"
-" سمها كذلك "
-" اتفقنا "

لفظ كلمته الأخيرة وعاد لوضعه السابق ممتداً على الأرض التي لا يعلم أين هي من جغرافيا الكون جاعلاً رأسه بمحاذاة رأسها واضعاً يداه على صدره في هيئة المصلي. نظرت إليه وهو مستسلم لها تماماً كالطفل وابتسمت ثم اقتربت منه وقبلته. شفتيها الصغيرتين تطبعان قبلة على جانب وجهه الايمن. تلك هي اللحظة التي تمنى فيها إما ان تكون هي فتاة حية أو أن يصبح هو مجرد روح حتى يستطيع الشعور بقبلتها التي لامست روحه المتقافزة فرحاً هذه الليلة.

-"كان عمري ثلاثة عشر عاما عندما اصطدمت بك للمرة الاولى .."
-" بي انا ؟؟ " نظر إليها مدهوشا ،، وهي بذات الهيئة لم تتغير؛ ناظرة إلى السماء
-" آه ، تلك كانت المرة الأولى قبل ستة أعوام. كنت قد استدعيت لإلقاء محاضرة في عيد النصر.إحتفالات السادس من أكتوبر كانت تأتي إلينا كل عام بشخصية جديدة تكون مفاجأة الحفل. في طريقي إلى مكتب الناظر وأثناء خروجك أنت من مكتبه اصطدمت بك و بيدي علبة بها دهان أحمر انسكبت من يدي على ملابسك وملابسي أيضاً نالها نصيب من الدهان. أخذ المدير يوبخني أمامك لكنك لم تقل شيئاً وذلك ما حيرني. و تلك هي أكثر المواقف حرجا لي على الاطلاق. سألتُ صديقاتي بعد أن انصرفتُ من أمامك عن من تكون، أخبرتني أنك الاديب الكبير / عمر المصري. سخرت منك ومن صمتك الغريب الذي استقبلت به الحادثة وظللت طوال اليوم أضحك ، بالرغم من خجلي امام نفسي .. همست لي إحدى صديقاتي - وقد كنا أربعة – ينبغي عليكِ تجربة القراءة له، فهو كاتب رقيق جداً ولولا رهافة احساسه لما كانت فعلتك المشينة مرت بسلام.شعرتُ بالذنب تجاهَك، فاتجهت لاقرب مكتبة تبيع رواياتك. اشتريتُأول مجموعة قصصية ، وبدأت في قراءتها أمام البائع ... حتى أنني نسيت أن أعطيه ثمنها "

ضحكت من جمال الذكرى وأخذت الضحكة تضئ السماء نجوماً وأقماراًوموسيقى السحر مستمرة في هدير ملائكي عذب .. التفتت إليه فوجدته ينصت باستمتاع بالغ فقالت:
-" ما بك ؟ "
-" هه .. لا شئ ، فقط كنت اتذكر ما تسردينه من تفاصيل ، هل تعلمين أمرا ؟ "
-" ماذا ؟ "

-" في ذلك اليوم كنت أعتقد أنه اليوم الاسوأ في حياتي. في الصباح تشاجرت مع زوجتي ، نسيت أن أخبرك أنها تكره وظيفتي وتكره الاوراق والاقلام؛ وإن سألتها عن أمنية حياتها ستقول لك أتمنى العودة إلى العصر الحجري؛ في ذلك الحين الذي لم تولد فيه الحروف بعد ولم تنطق ولم يعرف أي مخلوق طريق للورق.

أخرجت لي تلك البزة التي وشمتها براءتك باللون الأحمر. لقد كان لها معي ذكريات عديدة؛ أبرزها هو أنها الهدية الأولى من زوجتي، فقد ارتديتها في هذا اليوم كي اصالحها وأكسب ودها قبل خروجي من المنزل. لكن دون جدوى عدت إليها ملوثا بخطيئة لم تغفرها لي حتى هذه اللحظة "

انكمشت صبا بكيانها الشفاف وتحولت إلى كتلة من الخجل القرمزي بجواره وهي لا تجد ما تقوله، لكنه ساعدها في الخروج من هالتها هذه بضحكة متعالية خرجت من أعماق قلبه. بدا الأمر محرجاً أكثر عندما شعرت بأنه يضحك فقط كي لا يشعرها بالحرج. استكمل وهو ينظر لها بعين حانية.

-" لقد حمدت الله بقلبي آلاف المرات ، لأنها الهدية الوحيدة التي لم تنل رضاي منذ ارتديتها أول مرة ، هل أزيدك من الشعر بيتا ؟ "
-" تفضل "
-" لا أكاد أذكر ان يوماً مر عليّ أثناء ارتدائي لها بلا كارثة. ذات يوم كنت أوقع عقد رواية لي، وبالمصادفة كنت أرتدي البزة المنشودة. تخيلي ماذا حدث ؟؟ "
-" ماذا حدث ؟ " .. لمعت عيونها الطفلة بفضول شهي بدت شفتيها أكثر لذة وحمرة، سعادتها التي تنبض في كل ملامحها كافية لإغراق الكون ...
-" وقتها لم يكن لدي حاسب آلي ، خرجت من منزلي بالمسودة النهائية للعمل ، وبي فرح لا ينتهي. ومن حظي التعس كانت تلك هي المسودة الوحيدة. راودتني رغبة في أن أمشط الطرقات بنشوتي، نسيت إخبارك أنني أهيم بعد نهاية كل عمل في نشوة تنتابني، تجعلني راغب في التهام الحياة التهاما. لنعد إلى الموقعة الأليمة .. ظللت سائراًأتأمل الطرقات المزدحمة في ظهيرة يوم ثلاثاء تعس.وإذا بامرأة لا بارك الله فيها تطل من شرفتها اللعينة ثم تسكب عليّ وعلى روايتي قدحا من الماء الساخن .."
-ندت عنها شهقة لا إرادية وهي تشخص ببصرها ملتفتة إليه ... إنها اللهفة المحببة إلى القلب ...

" والمسودة ؟"
-" تفتت يا صغيرتي "
-" وأنت ؟ هل تأذيت ؟؟ "
-" لا لم يكن الماء ساخناً بالقدر الذي يجعلنى انضج تحت شرفتها. بضعة التهابات سطحية عابرة وأزمة نفسية جعلتني اتوقف عن الكتابة عاماً بأكمله "
-" مؤسف جداً " .. بدا وجهها حزيناً متأثراً بما يرويه كاتبها المفضل، لكن وجهه هو بدا سعيداً منتشياً .. كنا ننظر إلى بعضنا نظرة لا يسعني ككاتب أن أصفها بأي كلمة من كلمات الابجدية كلها. ظلت آسفه بجواري ترمقني بعين مشفقة وقلب منفطر ثم اتسعت البسمة الخجلة على شفتيها رويداً حتى أشرق وجهها بضحكة عذبة ثم همست ..
-" هل أخبرك أمرا مشابها ؟ "
-" قبل أن تخبريني، لأ داعي لأسفك فقد كانت لهذه البزة معي مواقف محجلة وجاءت لمستك الأخيرة لتتوج كل ما سبق من مهالك وكأنها قبلة تفسد صلاة البزة. ما زالت حتى هذه اللحظة في دولابي كذكرى من زوجتي وذكرى لأشياء عديدة أخرى؛ أهمها أنها ذكرى أول لقاء بيننا بالرغم منأنني لم أنتبه لكِ حينها "

لفظت عباراتي بحماقة وأنا أرى على وجهها خيبة طفلة أمام أبيها.أين كان عقلي لا أعلم. ابتسمت لصراحتي وهمست مجدداً ..
-" ذات يوم وكان ثلاثاء أيضا .. ألا ترى أنها صدفة جميلة ؟ .." نظرة حانية على وجهها البرئ ونبضة تعلو في صدري أمام حديثها ، ظللت هادئا أستمع وأنا أعلم أنها تسمع نبضات قلبي .. " في ثلاثاء نحس مثل ثلاثاءك الخاص ، كنت عائدة من عند خالتي الوحيدة .. تلك التي أحبها قلبي منذ نعومة أظافري. وكانت تلك هي المرة الأولى لي في حدث خاص بالفتيات المراهقات. تسللت في الطرقات والخوف يحيط بي من كل جانب. آلام تشتد أسفل بطني واحتمالات عديدة تثير الذعر في نفسي من ذلك اللون الأحمر الذي باغتني بلا استئذان. خجلت من أمي كثيراً وهربت من مواجهتها إلى خالتي التي احتضنتني بقوة وهي تهمس بكلمات مطمئنة. علمتني ما يجب فعله في تلك الساعات وقالت لي أن الأمر لا يدعو للقلق وأنني أجمل فتاة ..غادرت من عندها وأنا أسير على شوك من الخوف. أشعر أن الكون بأكمله يرى ما بي من قلق. وقفت وقد

كان الألم في بطني حينها على أشده .. حسبت أن أحداً لا يراني وأنا آخذ قسطا من الراحة تحت شرفة لعينة تشبه شرفتك ؛ وحدث ما أراه في عيناك الآن ياصديقي.
غمرتني سيدة عظيمة بقدح من الماء والصابون ... يا له من شعور مريع. رأيتني حينها كعصفورة كسرت أجنحتها وأغرقها المطر وفوق ذلك كله كانت تنزف دماً. لا يمكنني إخبارك كيف وصلت إلى منزلي ، ولا أذكر كيف كانت ردة فعل أمي ، لكن ما يمكنني قوله هو أنني شعرت بكآبة عامك كلها تنسكب في قلبي في ساعة واحدة ، هل تتخيل ما أصفه ؟؟ "
-" آه ، أتخيل يا عزيزتي ، موقف محرج للغاية "

كانت تنظر لي بخجل مرهق جداً وكنت أشعر- برغم عمري بذات الخجل. راودتني رغبة في الضحك لكنني لم أستجب لها. وراودتني فكرة تمنيت لو أنها حقيقية ..
ماذا لو أن الثلاثاء النحس هو ما جمعنا ؟! إنها تسرد حكاية موازية تقريباً لحكايتي متزامنة معها ، شعرت بثلج يدب في قلبي وقشعريرة تتخلل مسام جسدي لتخيل الفكرة .. أن نقع في موقف محرج له نفس التفاصيل وفي اليوم ذاته ولكننا لم نلتق .. ثم نلتقي ونعرف أنها حدثت لنا معا .. أن يحدث لنا الامر نفسه في يوم واحد ذلك لقاء من نوع فريد ..حسنا يا صغيرة عمري ها قد التقينا قبل أن نلتقي ، ماذا لديكِ أيضاً ؟! ..
وجدتني أنظر صوبها وهي تتأمل النجوم ، نجوم لم تكن حاضرة منذ بداية الأمسية ، حضرن فقط منذ قليل.
همست لي وهي تنظر إليهن.
-" هن شاهدات على ذلك اللقاء الذي لم نلتقيه يا صديقي "
-" هل تسمعين ما أفكر به ؟؟؟ " حالة من الدهشة تكاد تبتلعني ،،
-" بل أشعر به ، وأسعدني هاجسك الذي صدقته النجوم ، كنت أتابعهن في تلك الليلة وأنا ساهرة خائفة ، لم أكن أعرفك حينها ، لكنهن رأينك في الصباح وجئن يحملن لي خبرك في المساء. شعرت بهن يبتسمن لي ويربتن على كتفي "
-" تشعرين بالنجوم تربت على كتفك ؟ "
-" بل أشعر أحيانا بأنني مستلقية على ذراع إحداهن وأرى العالم ككتلة من الطين بحجم حبة المطر "
-" خيالك خصب "
-" تقصد حر ! "

-" ما مفهوم الحرية في نظرك ؟ "
-الحرية أن أكون معك برغبتي لا برغبتك "
-" متمردة ؟! "
-" لا بل أحترم ذاتي ، الحرية هي أن أفعل ما أريد وقتما أريد دون تدخل من أي قوى خارجية "
-" حتى إرادة الله ؟ "
-" الله هو من يلهمني لفعل ما أريد ، وهو الذي يفجر بقلبي رغبتي فيما أريد "
-" أنتِ مؤمنة "
-" لست كافرة ، و أنت ؟ "

نظرت إلي مباشرة ولم تدع لي مجالاً للتفكير. باغتني سؤالها كخنجر على رقبتي. أزعجتني طريقة حديثها وصوتها الذي تحول من صوت طفلة إلى مبارزة قوية وكأننا في ساحة قتال. شعرت حينها لوهلة ان بعينيها كره خفيّ لي .. حرت في أمرها وبدأ النعاس يتسلل إلى عيني.أشعر بضجر شديد أمامه هذه المرة، فهناك الكثير من الاسئلة العالقة في رأسي وهو يأتي بكل بساطة ليسرقها من بين يدي ..
- " جاوب قبل ان يغلبك النعاس "
- " لماذا تهاجمين افكاري هكذا ؟ "
- " لانني أسكن بينهن .. جاوب "
- " على ماذا ؟ "
- " أنت مؤمن ؟ "

كان عمر كمن يستنزف وقتا إضافياً للتفكير في السؤال مرات عديدة ولكنها كانت تبتر كل الجسور التي حاول المرور عليها كي يجد سبيلاً للخروج من سؤالها. غابة كثيفة من الحيرة علق بها أمام السؤال وتذكر غيوم ملبدة تظلل حياته.صبا تنظر إليه بخوف والشفقة تقطر من عينيها دموعاً. لم يعرف سبباً لبكاءها المفاجئ ككل شئ فيها ، لكن الدموع التي عجز عنها منذ قليل أصابته بعجز مضاعف أمام سؤالها فقال بغير رضا .. وبصوت متهدج.
- " لست كافراً أنا أيضاً "

- " لكنك لا تتحلى بالايمان الكافي "
- " وما الإيمان الكافي يا صغيرة عمري "
- " صغيرة عمري ... ما أجمله من نداء .. هل لديك أطفال ؟؟"
ضربة مفاجئة أخرى. كيف يهبها رداً لهذا السؤال؟ الحياة تفاجئنا بكل غريب حتى نفقد تصديقنا لأنفسنا أحيانا ...
- " أجيبي سؤالي أولا أيتها العجوز الماكرة "
- " ها ها ها ها ، حسنا يا صديقي المراهق الخجول ، الإيمان الكافي هو أن تؤمن بذاتك ، وتؤمن بهذه الروح التي تسكنك ، وتؤمن بأنها قبس من نوره سبحانه جل شأنه ، وتؤمن قبل ذلك بوجوده وبأنه صانعك"
- " تعريفك للإيمان مختلف عن ما درسناه في العقيدة "
- " الإيمان هو التصديق ، والله جل شأنه يهبك المفاجأة تلو الأخرى إختبار لمدى تصديقك لقدرته ، بالرغم من أنه غني عن تصديقك أو عدمه لكنه يريدك مؤمناً حقا، وذلك لا لشئ سوى لأنه يحبك "
- " وما دليلك على حبه ؟"
- " لو لم يكن يحبك ما خلقك وجاء بك إلى الدنيا وأمهلك كلما عصيت "
- " أحب حديثك "
- " أحبك بالقدر ذاته "
رغبته في إنهاء الحديث جعلته يسقط في هوة من النعاس وهي تنظر إليه مستمتعة. لقد عاشت عمراً قصيراً تتمنى لقاءه؛ و ها هي تجلس بجانبه وهو يتثاءب ويغيب كالشمس في غروبها. مسحت على شعره بكفها الصغير ثم وضعت رأسها على صدره كي تنام.
هل تنام الأرواح ؟؟ هل يشعرون بالتعب مثلما نشعر ؟ وهل لكل الأرواح نقاء يشبه نقاء صبا .. للحلم لذة وللموت لذة أحياناً ، لذة الموت التي تشعر بها استحقت تماماً ذلك الألم الذي مرت به ..

موت سريري

نهار غائم ، يشبه قلوب الأمهات الثكالى اتكأت فيه الفتاة على فخذ أمها أمام التلفاز في جلسة حميمية ندر حدوثها بينهما في الفترة الأخيرة. الشقة القابعة بصمت في طابقٍ رابعٍ من بنايةٍ في حي هادئٍ لا يُعرف له اسمٌ. بهو ضيق يحتوي أماً شاحبةَ اللونِ بعينيها زرقة تشبه الدخان، على رأسها ربطة خضراء توجت تجاعيد وجهها، مرتدية قميصاً طويلاً له عدة أزرار نحاسية. قميص من تلك القمصان التي اعتدن النساء العجوزات ارتداءها. الصورة تحتاج إلى ألوان أكثر من ألوانها الباهتة. الفتاة نائمة على فخذ أمها في هدوء وطمأنينة غير معهودة. شعرها الأسود ينسدل على كتفها مختبئاً في حضن أمها. تنظر إلى التلفاز الرابض في بؤس على طاولة صغيرة بالزاوية. ثمة ضوءٍ ينبعث من النافذة. الشمس بفضولها المعتاد تدخل لتشاهد مع الأم وابنتها الحسناء حلقة المسلسل التركي التي تعشقها الأم. أزيز يتصاعد من مكان ما بالشقة. قامت الفتاة بقميصها الوردي القصير لتفتح الباب؛ فيدخل شاب طويلٌ نحيلٌ يشبهها قليلاً لكنه لا يتمتع بذات الحسن. شارب كاذب يعكر صفو بشرته؛ وعينان سوداوان تطلان من تحت حاجبين اتخذا طريقهما ليصبحا حاجبي رجلٍ مشعرٍ؛ أنفه الحاد يقف في ساحة وجهه شامخاً .. نظر إليها وعلى وجهه رغبة ماجنة في مشاكستها.

- " ألا ترين أنكِ قصيرة جداً اليوم ؟ "
- " ليس من شأنك "
- " الناس قد أكلوا وجهي ، ينادونني بأخي القصيرة ، يا قصيرة "
- "كفى الطول أمثالك "
- " وما بهم أمثالي يا ذات اللسان السليط ".

أغلق الباب من خلفه وأمسك بذراعها كناية عن الشروع في مشاجرة جديدة. انتزعت ذراعها من قبضته التي آلمتها وأسرعت نحو أمها، فتركها واتجه إلى غرفته. قسمت شقتهم بعناية لتحتوي على غرفة له وغرفة لها وغرفة ثالثة للأم العجوز والأب الذي يسافر كل أسبوع ليلتين.

تدور بعقلها رغبتها الجامحة في الذهاب إلى الحفل ، ستلتقي به أخيراً. يخفق قلبها وتلتفت إلى أمها فإذا بالدموع تغرق وجهها. و في التلفاز، تقف البطلة في وسط الغرفة مرتدية فستانها الممتلئ بالزهور، ممسكة

بيدها مسدساً وجهته إلى صدرها؛ وفي المقابل يقف البطل موليا ظهره للنافذة، ناظراً إلى حبيبته التي تهدده الآن إما بموتها أو بالهروب. والبكاءُ سيدُ الموقف !! ..

أمها ما زالت تبكي أمام التلفاز،بينما هي تفكر في الموت. كيف تغادر الروح الجسد؟ كيف نصعد إلى السماء وهل يصل الحب بالمرء إلى هذه الدرجة من الجبن ؟ هل الانتحار فعلاً درجة من درجات الجبن أم أنه درجة من درجات الشجاعة ؟ ستسأل أستاذها عندما تلتقي به في الحفل هذا المساء ..

- " أمي سأذهب لأستعد للأمسية "
- "ماذا أقول يا صبيتي الحلوة ! .. قلبي ينقبض كلما تحدثنا في هذا الأمر "
- " إنها المرة الأولى التي تقام فيها أمسية قريبة منا يا أماه ، أرجوكِ "
- " حسناً ، تناولي دوائك أولاً ، و ليذهب معكِ أخوكِ "
- " عصام ؟ .. لا يبدو أنه يريد الذهاب يا أماه " .

انبعث الصوت من غرفة عصام " إذا كان هناك فتيات جميلات بأمسيتك هذه فلا بأس "

- " أنظري يا أماه ؟ " ..

بدأالحزن على وجه الصغيرة التي وقفت تحادث أمها والغيظ يملأها تجاه أخيها، لكن أمها نهرته ومنحتها ابتسامة ود تثلج الصدر. انتهى الشجار الدائم بين الأخ الأكبر و الأخت المدللة التي ظهر في عالمها مؤخراً طبع جديد. تحب الكتب وتحبس نفسها بالساعات في غرفتها؛ فإذا دخل عليها أحد وجدها هائمة في كتاب. ترى من ذا الذي علمها إمساك كتاب والاعتكاف عليه !

دقت الخامسة، الآن سيصل عمر إلى القاعة، والآن سننزل إلى الشارع. نظرت إلى المرآة. فتاة زرقاء العينين لها بياض كالثلج؛ أضاءت وجهها ابتسامة فرح. ترتدي فستاناً له أزرار مزينة بالورد. زهور بنفسجية تمتد على الجانب الأيمن للفستان؛ له أكمام بيضاء. بدت حورية من الجنة. مررت أصابعها في ليل شعرها وتذكرت ضاحكة مقولة

" وضعيني مشطاً عاجياً في عتمة شعركِ وانسيني" ترى هل ستسمع هذه العبارة ذات يوم ؟ هل عشق نزار حبيبته إلى هذا الحد ؟ هل يمكن للمرء أن يتماهى في عشق من يحب بهذه الدرجة .. نظرتها المتسائلة إلى المرآة

تكاد تكسرها وهي تعقد شعرها وتضع عليه حجاباً أبيضاً .ارتدَتا لحجاب منذ ذلك الثلاثاء المميز واضعة لأنوثتها الشقية حداً. لكن حسنها كان يزداد يوماً بعد يومٍ. صديقاتها كن يحسدنها وكانت تضحك من غيظهن.

بهدوء تخطو خطواتها المشتاقة إلى ذلك الشخص الذي عشقته على الورق. هامت في حب بطلاته كما هام هو. حزنت لموتهن وأعجبت بأبطاله فقط لأنهم من صناعته. لكن الحب فقط من أجله هو. يسير عصام بجوارها. تعلقتبذراعه وهي تتقافز من السعادة. تحدثا كثيراً أثناء سيرهما عن حلمها الذي لطالما حلمت بتحقيقه. ستكون كاتبةً كبيرةً عندما تتخرج من الجامعة. أجابها ساخراً "انتهي من الثانوية أولاً". ضجر يفوح من عطره الهادئ وهيئته المتواضعة.يرتدي بنطالاً قماشياً بنياً وقميصاً أصفر. لحظات نظرت فيها إلى بائع المثلجات وابتسمت، فقال وهو يلتفت معها ..

- " سنعود له بعد انتهاء الأمسية "

لا أحد يعلم ماذا حدث. لم يشاهد أحد ملامح السائق الذي هرب مسرعاً بعد فعلته. لم يستمع أحد إلى صرختها التي دوّت في أذني عصام. جمدت الدماء في عروقه وهو يشاهد أخته الوحيدة غارقة في بقعة متسعة من الدماء تحت رأسها. ما يمر أمام عينيه هو واقع يعيشه؛ ليس فيلماً سينمائياً. لحظة من الموت وقفها أمام أخته الصريعة على إسفلت شهد على ما يقرب من عشرة أعوام من ذهابهما ومجيئهما؛ لعبهما وجدهما؛ أعيادهما وأحزانهما. كثيراً ما هرولا معاً على هذا الطريق، وكثيراً ما سقطت أوراقهما عليه. لكنٍ اليوم ! .. تسقط عليه روحها. تسقط عليه قطرات دماءها.التف الناس حوله وهو مذعور متجمد. دوي هائل لسيارة الإسعاف يقطع نوبة الموت التي سقط فيها. شابت ملامح عصام فجأة وهو يراقب الموت فوق رأس أخته التي كثيراً ما داعبها وأغضبها وسرق أقلامها ونقودها.

في المشفى .. و بعد ساعات من تلك الساعة العسيرة التي مرت عليه كالدهر، استقرت أخته على سرير من أسرّة المشفى البيضاء. تلك الأسرّة التي يختبئ الموت بين ملاءاتها. ابتلع ريقه وشعر بالضوء يعود إلى عينيه مجدداً بعد أن سمع من الطبيب تقريراً نهائياً نتج بعد ساعات قاتلة في غرفة العمليات ... نطقت العبارة الشهيرة للطبيب

" إذا مرت الأربعة وعشرين ساعة القادمة وهي على قيد الحياة فهي بخير" ثم يغادر الجميع.

بقيت الأم الباكية و عصام. لقد تزامنت ليلة الحادث مع تلك الليلة التي يسافر فيها الأب إلى عمله. من المحزن أن يلتقي المرء بضيف ثقيل كالموت في حضرة غياب الأب. لم تكن صبا طفلته المدللة؛ فهي لا تعرف الدلال إلا على أمها التي تحبها حباً جماً. لكنها بالطبع تحتاج إليه، تتوق إلى صوته الجهور، وابتسامته المتواضعة، ورائحته في صباح الجمعة، و خطه على كتبها في أيام الدراسة، وأخيراً تشتاق إلى ذراعيه لتختبئ فيهما من الموت ... لكنه دائم السفر .

سيل من اللوم نزل على عصام متبوعٌ بعبارات الندم والخوف من الأب الغائب؛ وأخيرا صمتت الأم وتركت النحيب والعويل بإشارة من الطبيب الساهر بجوارهم في غرفة الطوارئ.
مرت أربعة وعشرون ساعة بالفعل، لم تكن صبا فيها شاعرةً بأي شئ؛فقد تحطم حلمها بلقاء حبيبها بعد ما حثت الخطى كي تلحق به. والآن .. لا شئ يتحرك في الحياة.
ما أجمل العدم !! قال نزار ذات يوم " وضعيني مشطاً عاجياً في عتمة شعرك وانسيني" هل يمكن للمرء أن ينسى من يحب ؟ أم أنه نسيان طمأنينة لكونه في عتمة شعرها، في غياهب روحها ؟؟
ستكون صبا من السعداء إذا ما أصبحت مجرد عتمة تلحق به أو عطرٍ يستقر على كتفيه. تتمنى أن تصبح أمنية تسكن افكاره ... لكن كل شئ سكت. كل ما تمنته سقط على الإسفلت وتحول إلى دماء لم يشعر بها عمر يوماً.

غرقت الأم في حالة من عدم الفهم عندما أخبرها الطبيب أن صبيتها الحلوة الجميلة ذهبتللأسف في رحلة إلى عالم لا يعرفه أحد، ولا يعلم أحد متى ستعود منه، و قد لا تعود.صرخة حارقة تصمّ الآذان دوت في رواق المشفى أُتبعت بنحيب غير عادل. لا أحد يمكنه إيقاف البركان الثائر في قلب الأم. ولا يمكن لأحد أيضا أن يتحمل النيران التي تدب في أحشاءها .. كان عصام عاجزاً عن استيعاب كل ذلك. وقف خائفاً مذعوراً من هول المنظر. فكر كثيراً في عبارة "موت سريري" التي نطقها الطبيب بأسف وهو لا يعلم هل ستعود صبا من موتها أم ستمتثل لطبيعة الموت الغادرة .. لماذا ذهبت صبا لهذا الموت ؟ هل سئمت من مشاكستي ؟ ترى هل سامحت شقاوتي معها ؟ كانت تشتهي واحدة من المثلجات التي وقف بها البائع على الطريق. ترى هل ذهبت لتسرق منه واحدة وتعود ؟

ستعود .. هناك بصيص من الأمل يضئ في نهاية الرواق. تركه الطبيب وغادر ..

الجولة الثانية من لعبة عيد الميلاد

أعطني الناي وغني فالغناء سر الوجود ..
و أنين الناي يبقى بعد أن يفنى الوجود ..

انبعث اللحن من مكان ما. فتح عمر عينيه ليجد نفسه ممدداً على السجادة الحمراء بغرفة مكتبه !
معطفه ملقىً بعشوائية على الأريكةِ التي حزنت لغيابه عن حضنها هذه الليلة. نظر حوله واتبع هدير فيروز المنبعث من مكان ما. يشعر بحب جم يتزايد بداخل قلبه تجاه الكلمات واللحن والصوت. ثلاثية اللامعقول تصدح وتتراقص في أنحاء منزله. حاول أن يتذكر كيف جاء إلى الغرفة وكيف نام هكذا لكنّ ألما طفيفاً دب في رأسه.فتح باب الغرفة وهو يتجول في المنزل باحثاً بأذنه وقلبه وعينه عن مصدر الصوت؛ و امتنان بالغُأطل من عينيه لمن شغّل له هذه الأغنية. على مدار سنوات خمسين لم يعشق كلمات أغنية مثلها و لا يعرف لحبه سبباً. قد تكون حالة الوجد الممزوجة بحروفها أو لأنها تشبهه كثيراً؛أو ربما لأنه تمنى أن يلتقي فيروز ذات يوم.

باغتته الذكريات. كان ساهراً على ضوء القمر يستمع إلى عذوبة صوتها ويناجي طيفها الذي يطل عليه من السماء. بعض الأغنيات تسكننا والبعض الآخر نسكن فيه. رأى نفسه راعياً يمسك بنايٍ يتيم وهي نجمة تتبعه في ترحاله. راق له حلمه فعشق الناي من حينها. بالحياة أمور كثيرة تبدو صدفة. لكن الحقيقة أنه لا شيء يأتي صدفةً. نحن فقطمن اخترعنا عبثية الأشياء كي لا نجهد عقولنا بالتفكير في أسباب الحدوث ودلالاته.

جلست زوجته على أريكة في وسط البهو، ومن خلفها استدار الدَرَجُ الصاعد. كانت تمسك بيدها قميصاً له. نظرت إليه بنظارة الخياطة التي تغطي نصف وجهها. علامات الضجر الظاهرة على وجهها تنم عن مصيبة وقعت ليلة أمس .. !
- " صباح الخير "
- " صباح الخير يا عزيزي " .. قالتها بصوت غاضب
- " ماذا بكِ "
- " بي أنا ؟؟ لا شئ ، أنت ماذا بك ؟ "

- " لم أفهم ، ما بي؟ "
- " عمر .. هل من الطبيعي أن يترك الرجل زوجته وفراشه الوثير لكي يستلقي كالمراهقين على أرضية المكتب ؟ "
- " نمت رغماً عني يا عزيزتي "
- " رغماً عنك ؟؟ " .. نظرة لائمة تطل من وراء نظارتها وهي تمسك بإبرتها ..

شعور خفي بداخل عمر حدثه بأنها ترغب وخزه بتلك الإبرة في عينه. غاضبة ككل زوجة تغضب لشعورها بأن زوجها محتَلٌ مستعمَرٌ مَلَكَه غيرُها فأوجد فيه مشاعراً هي الأحقُّ بها. لم يعقب على سؤالها الاستنكاري و إنما تركها و ذهب ليغتسل. ذكريات الحديث ليلة أمسٍ تداعبه، تثير ابتسامه، تبكي على كتفيه.
حار من تلك الهيئة التي وجد نفسه عليها في الصباح، و حار من اختفاءها عنه. هربت منه. سرقها النوم. ألا لعنة الله عليه سلطان يتلاعب به كالأطفال ..

انطلقإلى الجريدةوفي يده صحيفة مطوية باستحياء. استقل سيارة أجرة مرتدياً قميصاً أبيضاً وبنطالاً من الجينز.رمق نفسه قبل الخروج بنظرة متسائلة .. " ما بك يا عمر؟ " لكنه هرب من المرآة ومن السؤال.
نشوة ممتزجة بالحيرة تسيطر على ذهنه. في الطريق يرى أُناساً يسقطون عبر النافذة أمام عينيه؛يرى نفسه إلهاً يطوف الأرض مبتهجاً؛ يبحث عن مخلوقته الوحيدة؛ يبحث عنها في عقول البشر وعيونهم، في المصابيح المطفأة النائمة فوق الشرفات، وفي الفراشات التي تحلق عالياً حول نباتات ظلٍ صُلِبت على الجدران.
حيرته تجرده من صفته كصانع، ليجد نفسه ضعيفا يحتاجها .. وما أضعف الإنسان إذا ما احتاج إلى روحٍ وكأنه كان ميتاً قبل لقائها وميتٌ في فراقها.

عبثاً نظر إلى الصحيفة برفقته، فاتسعت ابتسامته بسخرية شديدة ..
"كاتب كبير يمر بمرحلة متأخرة من الجنون على ضفاف النيل"
خبر بلون أصفر خائف على وجه الجريدة الجبانة، وكتابة منمقة تسرد مشهداً يعرفه جيداً. نزهة المثلجات تلك، والعيون الشاخصة المتفحصة ، والشفاه التي تهامست وتشدقت باتهامه بالجنون .. لا يهم ، فهم مساكين.و

برغم رجفة القلق التي سرت في جسده إلا أنه أقنع نفسه بتفاهة الخبر، فهم أقل من أن يهتم بهم. ولو كانوا بالشجاعة التي تستحق المواجهة ما تراجعوا عن كتابة اسمه في تفاصيل الخبر.

تركالجريدة بجانبه ونظر صوب البشر مجدداً يبحث عن صبيته. يفوح من بينهم عبق الهموم وأهوال الحياة. شعر بأنهم جميعاً عرفوه،سكنوا معه، عشقهم من قبل في حياة غير هذى الحياة. ألفة ما تجعل اللوحة أكثر بهجةً ووضوحاً. التفاصيل ملهمة. يتوق لحضن الأوراق ومنبر القلم. يحتاج رسم ما يرى من تناغم بديع بين الباعة والموظفين والأمهات اللاتي خرجن لشراء الخضر؛ والطلاب الذين يحملون أحلامهم على
ظهورهم فرحين بالمستقبل.
وبرغم ذلك كله، هناك طبقة من الحزن تغطي كل هذه البهجةو كأنها طبقة منغبار أتت على لوحة فنانٍ عبقري ! تأتيك المفاجأة تلو الأخرى كي تختبر قوة تصديقك لذاتك أولاً ...

سرت بيده قشعريرة يعرفها جيداً، يعشقها. التفت بلهفة ليجد كفها الصغير يلمس كفه وهي تنظر إليه نظرة بريئة كطفل يكتحل بابتسامة أمه.
- " صباحكِ سكر "
- " تحب كاظم ؟ "
- " أين كنتِ "
- من الأمام جاء صوت السائق وهو ينظر في المرآة أمامه " هل قلت شيئاً يا أستاذ ؟ "
- " هه .. لالا "
ضحكت وسقطت ضحكتها مطراً على صحراء روحه العطشى " يحسبونك مجنوناً "
- " سأصير مجنونك "
- خجلت أمامه وتحولت إلى وردة حمراء شديدة الجمال ثم ابتسمت وهي تهمس
" انفعالاتك سريعة ومتقلبة "
- " أنتِ سحرتني "

جلبة آتية من النافذة. بائع الورد يصيح حول كل نافذة مروجاً للحب بطريقة فظة. وقطة تموء غاضبةًأمام قطِ يبدو أنه زوجها؛ وامرأة تبكي نقوداً سرقت منها في الزحام المنصرم ... سرق التفاتةًإليهم ثم عاد ليكمل الصباح مع الصغيرة لكنه لم يجد سوى وردة جميلة تقبع على الجريدة الحزينة بجوار يده. صبا ! .. يا لكِ من مراوغة.

أمسك بالوردة الحمراء وقربها من أنفه. يفوح عبيرها وكأنها المرة الأولى التي يستنشق فيها عطر وردة.أوراقها الناعمة تلمس شفتيهفيلثمها بحب كبير وهو مغمض العينين ..

في المرآة يظهر انعكاس لعيني السائق المجهدتان. على وجهه دهشة واستنكار بالغ .. وضع السيجارة المتسخة بين شفتيه اللتين اقتربتا من السواد وسحب نفساً عميقاً ثم أخرج من أنفه دخاناً كثيفاً وهو يطيل النظر في وجه عمر. يقول له هاجسه أن هذا الزبون إما مجنون أو واحد من هؤلاء المترفين ..

قطع عمر نظرته الفاحصة المترقبة بقوله:

-" سأنزل هنا من فضلك "

تنهد الرجل بارتياح وتبدد القلق الذي ساوره من هيئة عمر ، أخذ أجرته في تعجب وانطلق بسيارته .. لم يهتم كثيراً بأمر عمر فقد كان ما يشغله هو الأجرة؛ بجانب سلامته من هذا المجنون. عندما يقوم الراقد من موته ليسعى بين الاحياء ستتوجه إليه النظرات الفاحصة والخائفة والساخرة أيضا.

في الجريدة ..

وقف لفيف من المحررين في المكتب المتسع الذي احتلته أشعة الشمس في فضول ودلال كبيرين ، ووراء المكتب الفخم وقف عمر كقائد في موقعة أخيرة من حرب سيظفر فيها بنصر محقق. بين عبارة وأخرى يستنشق من الوردة الحمراء بيده بعضاً من الحياة .. هاجسٌ لذيذٌ ساوره أن هذه الوردة الحمراء ليست سوى صبا ولكن في هيئة جديدة. لذا آثر بقاؤها في يده؛ يرفعها بالقرب من شفتيه كلما أتيحت له الفرصة .. بينما وقف الموظفين حوله تعلو وجوههم نظرة ارتياب يتبادلونها في صمت وفضول. إحداهن تبتسم خفية. وأخرى تبدي إعجابا بالوردة الحمراء. والآخر يلقى تهنئة عيد ميلاد باردة يقابلها عمر بتجاهل قاتل.

كان اجتماعاً فريداً من نوعه. كلهم في الجريدة يعرفون الأستاذ عمر الذي يكره الورود بالرغم من رومانسية كتاباته. يكره التسيب. يدخل إلى مكتبه مسرعاً لينغمس في قهوته وكتبه. دائم الغضب قوي الملاحظة؛ تزعجه الابتسامة وتزعجه رائحة العطر الأنثوي.

واليوم ... بين أنامله وردة حمراء. يرنم بأغنية لفيروز. يدخل في اجتماع عاجل بطريقة مرحة متجاهلاً عطر النساء وصوتهن وكلمات الإطراء الزائفة من موظفيه.. حالة من الذهول العام أغرقت الجريدة.
بعد ساعات مضت وهو منتعش بينهم؛ أخيرا أصبح وحده. جلس في فضاء مكتبه يطالع أحد الكتب هرباً من التفكير فيها ، لكنها باغتته متربعةً على مكتبه تمسك الوردة بين يديها، تشمها وتلثمها كما فعل هو. نظر إليها فمدت يديها راغبة في سحب نظارة القراءة الأنيقة عن عينيه. خفق قلبه وهو يخلع نظارته قائلاً..
-" أين كنتِ يا شقية ؟ "
-" عند أمي "
-" أمك ! "
-" نعم"
-" وكيف حالها ؟ "
-" ليست بخير، كما تعلم هي حزينة عليّ "
-" أنتِ قاسية "

-" لماذا ؟ "
-" لأنكِ رحلتِ عنها"
-" من منا يملك خياراً أمام الموت يا صديقي ؟ "
-" كان بإمكانك البقاء مع أمكِ ، بإمكانكِ مواجهة الموت والتمسك بالحياة ، لكنكِ آثرتِ الهروب إلى العدم "
-" هربت إليك "
-" وماذا أكون ؟ مجرد وهم تسكنين فيه وأنتِ لاشئ "
-تقلصت ملامحها ونظرت إليه نظرة لائمة وهمست " أنا لا شئ ؟؟ "
-إرتبك .. للمرة الثانية يلقي بكلمات تبدو كالصخر في وجهها. تدميها كلماته كما تدمي قلبه فكرة موتها "آسف ، أنتِ أجمل الاشياء لكنكِ الآن .. عدم ، وهم ، خيال"
-"لست كما تظن ، أنا روح والروح ليست وهم أو خيال ، بدون الروح يا صديقي سيصبح جسدك مجرد كتلة عفنة من اللحم "
-" أنظري ، لقد حولتِ جسدك الرائع إلى كتلة عفنة بدلاً من أن تشبعيه بالحياة "
-" فضلت البقاء معك "
-" كيف ؟ "
-" كيف مجددا ؟!! "

نظرت إلى الصحيفة ثم نظرت إليه وهو صامت يتأمل وجهها تود سؤاله كيف لم ينزعج من هذا الخبر ، لكنها خجلت. تريد أن تساله هل حلم بها ؟ لكنها لم تستطع.
طالت نظرته في عينيها وانبعثت من الأفق موسيقى الليلة السابقة؛ وتجلت الشمس في كبد السماء تنظر إليهما. تبسما معاً. تفجر نبع الاسئلة في صدره وأخذ يسيل على فمه .. أين كانت ليلة أمس ؟ كيف هربت ، من أين أتت الآن ؟
وما هذا المكان الذي خطفته فيه ليلة الامس ؟ تجمدت الاسئلة في عينيه وهو ذاهلا لا يعرف كيف يبتدئ التحقيق ..
-" أنا لا أذهب لأي مكان ، انا فقط أتركك حراً "
-" كيف تعرفينأفكاري ؟ "

-" للمرة الثانية والأخيرة .. أنا أسكن أفكارك "
-" كيف ؟ "
-" إذا قلت هذه الأحرف الثلاثة العجيبة مرة أخرى ، سنخسر بعضنا " تبعت عبارتها بضحكة صافية تضئ صدره المشتعل بالحيرة.
-"معذرة ، ولكن كيف تسكنين افكاري ؟" .. انفجرا ضاحكين بعد سؤاله الذي لم يعرف كيف نطقه ولم يجد صيغة أخرى غير السؤال كيف.
قامت من أمامه بخفتها المعتادة وأخذت تتجول في مكتبه المختلف كثيراً عن مكتبه ذاك. وقفت أمام النافذة تتابع حركة السيارات في الأسفل.. شعور قوي بالأبوة يتصاعد نحوها ..
-" مكتب منزلك أفضل "
-" هذا رأيي أنا أيضا "
-" هيا لنلعب .. " صوتها المرح يلمس قلبه، لكن خوف ما نبض في صدره ولمع في عينيه عندما طلبت معاودة اللعب مرة أخرى ...
-" نلعب مثل الأمس وتتركينني ؟ "
-" أنت نمت ، هربت مني عندما تسللت إلى عقيدتك "
-" العقيدة سر "
-" وأنا ؟ "
-" أنتِ ماذا ؟ "
-" ذلك سؤال يجب عليك أنت إجابته "
-" حسنا لنلعب .. ماذا لديكِ ؟ "
-" آآه ، أشعر بفضول كبير نحو ماضيك "
-" مجدداً ؟ "
-" ودائماً ، فالمستقبل أنا ، لكن الماضي أنت .. سنطبق الآن لعبة بما تذكرك.."
-" وما معنى ذلك ؟ "
-" سأقول كلمة وتحدثني عن ما تعنيه لك أو تذكرك به "
-" ولكن هذه اللعبة تشبه السير في حقل الغام وأنا أخاف عليكِ "

-" سأموت مجددا ؟ " علت ضحكتها ، صبا تبدو عذبة كقطرة الندى .. بكل ما فيها
قام ليقف بجوارها أمام النافذة ناظراًإليها وهي تتحرك أمامه برشاقة كالفراشة .. ثم همس وهو أسير فتنتها ..
-" حسنا قبلت ، ابدئي "
-" آآ... اللون الأسود "

سكت عمر ونظر إلى الشمس وهي تغمر المدينة. السيارات تسعى بالأسفل كأن القاهرة مستعمرة نمل؛ والبنايات تقف لتستحم بضوء الشمس وهو غارق في لون أسود طرحته صبيته الشفافة ..
قد يذكرني اللون الأسود بأمي؛ بحزنها الطويل على والدي. وقد يذكرني بحزن زوجتي على أمي بالرغم من عدم حبها لها .. لم تشغلني يوماً طبيعة الحال بين أمي وزوجتي بل أنني لم أفكر قط في حال زوجتي ومشاعرها تجاهي ، كنت آخذ من حنانها ما يدفئني ولكن النبع الأكبر موجود. كنت أحب أمي حبا جما ..
لكن للأسود دلالات أخرى. فالأسود عباءة المحاماة التي ارتديتها رغماً عني. ومن العجب كل العجب أن يرتدي رئيس تحرير لجريدة شهيرة عباءة محاماة في بداية حياته .. لكن ما الذي لا يثير العجب في مدينتنا ؟؟!
صديقتي الخفية تقف بجانبي. فجأة دخل علينا أحد المحررين وبيده مقالة يريد مني قراءتها وإعطاءه موافقة عليها .. الآن ؟!

طلب مزعج كعادة مسببات القلق في حياتنا. تهربت منه ووضعت الملف المحتوي لمقالته العصماء على مكتبي. أمرته بالخروج. شعرت أنني مراهق يحادث فتاته للمرة الأولى ويختبئ من زملاءه وكل من حوله سراً بعد الخمسين. له لذة تفوق لذة الماء البارد في يوم من أيام أغسطس ..
ظلت تراقبني بعينيها الرائعتين طوال صمتي ، وكنت حائرا ماذا أقدم لسؤالها ؟ يجب أن تكون إجابتي شهية بقدر ما كان السؤال حريفاً ..
-" آه يا طفلتي ، للأسود في حياتي صولات وجولات .."
-" سمعت ما يدور بخلدك ، أكمل ، قل شيئا آخر "
لا أعرف لماذا شعرت بقطرات العرق تنساب من عنقي حتى تستقر بأسفل ظهري. خلت الأرض تحت قدمي كموج البحر الهائج المهلك .. رمقتها بنظرة خبيثة قبل أن ألقي لها قنبلتي
-" أحب الأسود على جسد مثل جسدك "

لكنها كانت أكثر خبثاً وجرأة؛ فقط تركتني أموج في هيام الشمس المتطفلة علينا حتى ارتفع من جديد هديرٌ عذبٌ لموسيقى صوفية. بالتكرار عرفت أنها موسيقى تركية. وجدتُ صبا تقف في وسط الغرفة مرتدية فستاناً أسوداً عاري الصدر، له حمّالتان من الحرير أحكمته على خصرها ليبرز ثدييها البريئين من الخطايا والشهوات؛ ثم حررته لتتسع تنورته لتبدو أمامي كالفراشة الرائعة. أطلقت صافرة لم تخرج من بين شفتيّ طوال عمري ، ورأيت بهجة تطل من عينيها وهي تدور حول نفسها في رقصة رائعة الجمال رافعة ذراعيها الناعمين إلى أعلى وهي تقف على أطراف أصابعها لترقص ويرقص معها قلبي. بدت كزهرة التوليب الحزينة ولكنها مبهجة في الوقت ذاته. خلت نفسي أمام راقصة شهيرة أو حورية تسكن قصراً في آخر البحور. غرقت فيها.ذبت في موجها وهي ترقص حولي يمينةً ويسرةً؛ حتى أنني تعرقت وجلست أرضاً فجاءت إليّ تجلس بجانبي لاهثةً؛ وما أجمل ذرات الهواء التي تصعد فراراً من لهيب صدرها وما ذنب الذرات التي تهرول في لهفة لتدخل إلى دمها ...

همست وقد تعرق جبينها البض :

-" أعجبتك ؟ "

-" لا .." غضب ينتابني كلما رأيت لمعة الشبق في عينيها الطفلتين كمن يرى النار تشب في ذيل قميصه، يهرول مسرعا كي لا يحترق جمال ثوبه ...

-" أنتَ تكذب "

-" وأنتِ تغرّرين بي "

-" أنتَ بحرٌ "

-" وأنتِ ساحرةٌ "

-" دورك في اللعب"

شعرت بدوار؛ وامتلأ فمي بمذاق الرغبة في الانتقام منها بسؤال كالذي سألته لي؛ لكنني لم أكن أعرف كيف أنال منها .. كيف أطعنها في قلبها حتى تنزف كل ما لديها من أسرار .. ما أعذب الكراهية التي تسري بدمي تجاهها في لعبة الاعتراف ، أريد استنزافها شر استنزاف ..

-"حسناً بما أننا في دائرة الألوان؛ سأسالكِ عن لون عينيكِ "

-"هل تريد إجابةً عن عينيأم لونِها ؟ "

-حِرْتُفي أمرها ، " الإثنين يا شقيّتي "

كثيراً ما تمعنت في عيون سوداء؛ لكنني لم أذق يوماً طعماً لحلاوة العيون الزرقاء المغرِقة .. جلست أنتظر حديثها الذي جذبتُهُ بعد صمت طويل ونظرة في أفق بعيد ..
البحر مدينة أسماك ترقص في نغم لا يقفُ ،، والكون فضاء منكسر والعاشق ساهر لا يغفو .

- "في واحة من واحات الكتب عثرتُ على بطلتك الأولى .. كانت تلبس خلخالاً من ذهبٍ؛ وقرأتُ حديثك عن شفتيها وعن الزهر المورّد في خديها .. في الصف الثاني الإعدادي كنت أترك شعري متطايراً حول كتفيّ فوق مريلتي الرصاصية؛ وذات يوم أمسكتني معلمتي التي أحبها وربطت لي شعري بوشاح أزرق اللون. شعرت أنها على وشك انفجار وكنت حينها أحب نفسي جداً .. ابتسمت وأخبرتني أن زرقة عينيّ لا تليق بشعري الاسود المتناثر؛ كما أن وجهي الأبيض يليق به شريطٌ أزرقٌ ممتلئٌ بالزهور. ما زلت أحتفظ بذلك الشريط في حقيبة أسراري ... كدت أسقط أرضاً من الضحك حينما أخبرتني صديقتي أن معلمتي تغار مني؛فقد حضر زوجها إلى المدرسة في ذلك الصباح ورمقني أمامها بنظرة إعجاب .. كم كنت شقية ! "
-" كنتِ شيطانة !! "

الغيرة التي فاحت من صدر عمر لم تكن أبوية هذه المرة؛ فقد شعر برغبة جامحة في إحراق علبة سجائر دفعة واحدة. مد يده إلى الوراء وهو جالس على الأرض تحت النافذة؛ وألقى برأسه إلى الخلف حائراًفيما يدور برأسه .. لكنها كانت تسرد عليه تفاصيل الموقف بعيون ثاقبة تتبع أثار الحريق المحتد في قلبه .. تسقط كلماتها على قلبه كقطرات زيت.
-" هذه حكاية اللون الأزرق ، حدثني عن الجوع ! "
-" الجوع ؟؟ "
-" نعم "
-" ولكن ... ماذا عن أولى بطلاتي ؟ "
-" كنت أشعر بالجوع كلما قرأتُ حديثك عنها؛ فالغيرة تقتل جميع قناعاتي "
-" الغيرة والجوع ! ، لا أستطيع فهم الرابط بينهما ولكن ، حسنا "
-" حدثني .."
وقفت بجواري وأنا جالس ملقياً برأسي إلى الوراء. وضعت ساعدها على النافذة وانثنت. علامة استفهام

أنثوية فريدة تقف فوق رأسي .. نظرت إلى عينيها مباشرة وهيبدورها تنظر لي .. تحدي بالغ يقطر منهما وابتسامة الظافر بفريسته تغتالني وأنا تحت اقدامها منهكٌ من فرط احتلالها لي.

-" الجوع في الرجل نقطة غضب إذا ما اشتعلت أحرقت كل ما يرد أمامها.كنت قديماًأعشق الحلوى حتى هاجمني التسوس؛ فأصبح أكل الحلوى في حياتي مختلس فقط في غفوة آلام أسناني.

كنت طفلاً وحيداً لا يحب طعام أمه؛ ثم مراهقاً يتأفف من طعامها؛ ثم شاباً يحن إلى مذاق الطفولة في وجباتها؛ ثم كهلاً يتقطع شوقا إلى رائحة طعامها، وفي كل المراحل لم تبخل عليّ بصنيع يديها. لا أعلم سر مذاقه، لكنني أثق بأنها تضع بهارات الحب من قلبها قبل أن تقدم لي وجبتي ... "

غرق في الحكاية وانسلّت من عينيه قطرات من الحنين؛ ثم باغته محرر آخر. طرق على الباب ثلاث طرقات ودخل شاب أسمر انحسر شعره عن نصف رأسه. له عينان واسعتان تختبئان وراء نظارةٍ طبيةٍ وأنفٍ أفطسٍ وشفتين غليظتين. أمسك بيده نسخة من الجريدة وجاء ليجد رئيسه جالسا على الارض في وضع مدهش وبعينيه دموع خجولة.

-" سيدي .. هل أنت بخير ؟ "

-" ماذا تريد يا أحمد ؟ "

-" وددت فقط عرض الطبعة الأولى عليك "

-" ليس الآن "

-" سيدي ، أراك متعباً "

اقترب الشاب منه وانحنى إليه لكي ينهضه، لكن عمر لم يستجب إليه. فقط أشاح بوجهه وهمس له "أنا بخير لا تقلق"

-قالت وهي ترمق الشاب الذي اتجه إلى باب الغرفة مولياً ظهره.

-"يحبك جداً "

التفت إليها ناظراً مستفهماً ولم يعقب، فجلست بجواره وقالت ..

-" لنكمل حديثنا "

-" حسناً "

غيرتها لذيذةٌ تدغدغ الروح وتبعث شموساً في ظلمة القلب الذي جف ونضب منذ زمن.

-" الجوع يا صغيرتي يقتل المبادئ، ويزعزع الأمان ، و يشقي صاحبه .. هل كان ابوكِ يزمجر في نهار رمضان؟

هل كنتِ تستمعين لذلك ؟ "
-" نعم .. كانت أشد ساعات الصيام عذاباً وثقلاً على نفس أمي تلك الساعة التي يجوع فيها أبي"
تجلس متربعة بفستانها الذي ما زال أسوداُ رائعاً تطل من فوهته مفاتن جسدها. تبدو أمام عمر كثمرةٍ شهيةٍ لم يبقَ على أوان قطفها إلا القليل.
-" أبوكِ هو رجل ككل الرجال. جوع الرجال مَهْلكة تحثه على ارتكاب الخطايا.
هل سمعت عن قاتل من أجل العيش ؟ "
-" لا .. ولكن أعرف أن هناك أناس يموتون جوعاً "
-" هل أخبركِ سراً ؟"
-لمعت عيناها وهمست بلهفة " أخبرني "
-" الجوع يطفئ الرغبة لدى الرجال "
نظرة الخبث التي رمقها بها أرجعتها إلى الخلف قليلاً ونشرت زهوراً حمراء على وجنتيها خجلاً.
-" هل تعلم أن المرأة تأكل كثيراً، أكثر مما تتوقعون "
-" حقا ؟؟ هذا اعتراف خطير يا فتاتي "
دهشاً نظر إليها وهي تهمس كمن يفضي إلى عزيز بسر خطير؛ ثم قهقه عالياً حتوصلت ضحكته إلى مرؤسيه بالخارج. إلتفت كل منهم إلى الآخر في عجب ثم توجهت نظراتهم جميعاً إلى باب مكتبه الزجاجي المغطى بستار من الداخل.
أكملت حديثها وهو يحدق في وجهاً مبتسماً و شارداً في الوقت ذاته.
-"المرأة التي تعاني من الملل تدخل إلى المطبخ لتعلم وصفة جديدة؛ وعندما يجرحها حبيبها تهرب منه إلى المطبخ ذاته؛ وتلك التي يخونها حبيبها تسهر الليل باكية وبيدها طبقٌ ممتلئٌ بالطعام.
لا توجد فتاة لا تعشق الأكل، لكننا فقط نخجل.أما أنا فكنت أمضغ أصابع البطاطس المقرمشة وأنا أموت غيظا أمام حديثك عن بطلاتك الخمرية والشقراء والهندية والسورية وغيرهن من اللاتي سحرن فؤادك وشغلن عقلك وقلبك "
-" كل هذا ؟! " .. زهواً سألها فضربته بقبضتها الصغيرة في كتفه ...
من جديد، طرقات على الباب، ولكن هذه المرة صرخ فيهم أن يتركوه يعمل. قام هادراً والغضب يلمع في عينيه. فتح الباب وخرج في وجههم وقد بدت حبات من عرق لامعة على جبينه.

ظل يزمجر ويهدر في موجة غضب طويلة حوّلت الجريدة التي استمتعت بصباح عليل إلى برق ورعد وغيوم وبردٍ يقتل القلوب. خفتت الهمهمات وشخصت العيون وجلس كل محرر على مكتبه فجأة بدا القسم لجنة امتحان لها مراقب قاسي القلب وطلاب لا يفقهون مما أمامهم شيئا. وانتهت العاصفة بصوت صفعة الباب وراءه وهو يعود إلى عرينه هادراً ينتفض من الغضب.

حتي هذا اليوم الذي اتممت فيه عقدي الخامس لم أتخلى عن التصابي والغضب الزائد. حتى هذه اللحظة لم يهنأ قلبي على جلسة حب مكتملة. أتوق إلى ليلة أغفو فيها على صدر الحبيبة. بلا صرخة مباغتة ولا رنين هاتفي قاس ولا نهار يتطفل على ليلنا معلناً عن نهاية اللذة.

حتى هذه اللحظة لم يعش قلبي قصة عشق تليق بي ككاتب مرموق للأدب الرومانسي. قالت صبا إن كاتب الرعب يشارك القارئ مخاوفه ويعمل على جذب مزيد من القلوب الخائفة لتؤنس وحدته في الخوف. حتماً هي تعرف تماماًأني ايضا أكتب مخاوفي؛أولنقل أكتب ما حرمت منه وما أتوق إليه. رسمت فتيات عدة في رواياتي،و كلهن عاشقات حتى الموت.

كلهن يأتين خاضعات طائعات إلى قلبي لكنهن ورق. حلمت بهن جميعاً لكن واحدة منهن لم تزر واقعي. لم تلمس خصلات شعري الأسود ولا لحيتي البكر. إنني أشعر بالخدر برفقة صبا. يراودني شعور مخجل يدعى الحب،ولكنه دائماً ما يختبئ في الرغبة. أغرق في فتنتها ثم أنجو على شاطئ خجلها المعطر بالحنان. ليتها لم تمت. بحثت عنها وآه من بحثي عن تلك المجهولة التي لا أعلم من أين تطلع ولا من أين تذهب عني. نظرت من النافذة كمجنون يعتقد أنها قفزت منها، لكنها أشد جنوناً من شيخوختي. قد تفعلها فهي لم تعد تخشى الموت.

عصام

يزعمون أن الموت قاسياً جداً وتسيل دموعهم على من فارقوا لا يعرفون أن العالقين بين الحياة والموت يتألمون أكثر !

على مدار تسعة عشر عام عاش عصام أبوة متخفية في ثوب الأخ الأكبر لهذه اللؤلؤة البحرية الصافية صبا ، عامان من البكاء ليلاً وهو في عامه السادس من عمره؛ وعامان من المرض والشكوى والشقاوة؛ وأعوام عديدة بنكهة الجدائل السوداء والرداء البني الخاص بالمدرسة؛ وعامان لونهما رصاصي تلاهما عام رصاصي غائم بسحابة حجاب مضئ سنوات غارقة في بئر ذاكرته؛ ولم ينتبه لها إلا في تلك الأمسية عندما طفت جثتها.

في غرفة بيضاء الجدران بها إضاءة شاسعة، باردة كالغربة، موحشة كالقبر بالرغم من سطوع النهار فيها إلا أن ليلاً ما يجثم فوق صدور الجالسين.

عصام يقف بجوار أمه التي أمسكت كتاب الله بين يديها معتصمة به في مواجهة احتضار طفلتها؛ ودوي بعيد من عقله يصرخ في صغيرته المسجاة على سريرها الأبيض أسيرة بضع من الأسلاك والأنابيب.

رنين ينبعث مختنقاً من جيبه. أخرج هاتفه و نظر إلى شاشته ثم أجهش بالبكاء. جلس إلى الأرض بجوار أمه الرابضة بداخل حزنها وقد اشتد احمرار جفنيها وأنفها فتحول وجهها الشاحب إلى زهرة ذابلة تحتضرعطشاً.

همس في أذنها .. -" أمي ، هذا أبي "

-التفتت إليه صامتة وهو يعتصر ألما من هول ما يجد من العبرة " لا تخبره شيئاً "

تنهد وقام ليبتعد عن صمت الغرفة الذي لا يشوبه شيء سوى صوت صافرة منتظمة تنبعث من الأجهزة الموصلة بجسد أخته.

-" آلو .."

-.....

-" مرحبا يا أبي "

-.....

-" أنا بخير ... وجميعنا كذلك "

-.....

-ببكاء مكتوم " صبا ؟! .. نائمة يا أبي ، نائمة "

-.....

-" لا تقلق يا حبيبي فقط كنت أتابع مباراة وغضبت لخسارة فريقي"

-.....

-لم يستطع تمالك أعصابه أكثر من ذلك " متى ستعود يا أبي ؟ عد سريعا أرجوك ".

-.....

-" هه .. لا شئ صدقني ، فقط أريدك هنا معنا "

-.....

-" حسناً. إلى اللقاء .. لا تتأخر "

ما أبشع الكذب !! للمرة الاولى يتألم عصام من كذبه على والده ويتألم لغيابه في هذا الوقت المميت ... بدت الحياة في نظره قاحلة وهو يتابع اقتحام الموت لعالمه ..

عاد إلى أمه. ما زالت غارقة في صمتها بعد جولة من البكاء المرير. جلس في مقابل السرير ونظر إلى وجه الجثة النائمة عليه.

زرقه كئيبة تنبعث تحت عينيها المغمضتين وجرح خجول يقف على فمها. ضمادة بيضاء التفّت حول رأسها لتخفي شعرها الخلاب.

كم لاعبت أناملة هذه الخصلات العذبة .. كم مرة بكت تلك العيون بسببه؟ كم مرة خرج اسمه منعوتاً بالقذائف والشتائم من هاتين الشفتين المريضتين.

مد يده في هدوء وخشوع ليمسك بكفها الصغير. كانت باردة في يده. قديماً كانت تنبض بالحياة. كثيراً ما مر هذا الكف الناعم على وجهه أثناء رجاءٍ او لعبٍ. عيناه تذرفان الدمع في مواجهة صمتها؛ ثم تفجر في صدره حديثاً تمنى لو أنها تسمعه.

خفت صوته كثيراً وهو يقترب بمقعده من السرير لكي يضع فمه بجوار أذنها مباشرة قائلا :

-" سامحيني طفلتي .. على كل الساعات التي أغضبتك فيها. صبا ..أنا لا استطيع دخول شقتنا طالما أنكِ لست

بها. صبا ..استيقظي يا شقية .." ثم أجهش بالبكاء وهو لا يعرف ما يقول
ترقرقت في عينيه صورتها ورنّ صوتها الرقيق في أذنه.

أغمض عينيه فتذكر مشهداً من مشاهدها الطفولية. ضوء خافت ينبعث من شمعة تقف حائرة تصارع الظلام في غرفة صبا؛ وعلى الجدران بضعة من الظلال. ظِلٌ لشكلٍ مخيفٍ يتجه بتؤدة نحو ظِلِّ لفتاة تجلس مترقبةً.
وفجأةً يرتفع صراخ صبا خائفة فزعة من ذلك الشكل المخيف. تبعته ضحكات متعالية لعصام .
انقطعت الكهرباء فقام يخيفها وهي تقرأ على ضوء الشموع. رمقته بخوف وحنق شديدين فاقترب منها ليطوق رأسها بذراعه مازحاً غير آبه بخوفها وغضبها منه ..
لذة تذهب العقل تلك التي يستشعرها برفقة الدمية التي جاء بها والداه. فاضت عينيها بدموع خائفة على كتفه.
رجفة خفية سرت بجسده ولكنه هتف بصوت مرتفع.
-" طالما أنكِ برفقتي لا تخافي من أي شئ .. خافي مني أنا فقط "
-" كم أكرهك "
-" وكم أحب إخافتك يا جبانة "
-" الجبان هو من يختبئ في الظلام لفتاة رقيقة مثلي "
-" رقيقة ؟؟ تشبهين الدمى البلاستيكية "
-" يالسخافتك "

ما ألذ مزاحها ، وما أشهى صوتها عندما تغضب . ها هي صغيرته ترقد الآن صريعة بين يدي الموت. ذرفت دموعه مجدداً وهو يمسك بكفها وكأنه يستوقفها حتى لا تكمل طريقها نحو النهاية ..
مع بزوغ الفجر بزغ أمام عينيه وابل من الذكريات. ذلك اليوم الذي شاهدها فيه وهي ترقص بغرفتها.
فراشة تترنح غارقة في سكر لا نهائي من اللذة ، مرتدية جورباًأحمراً وفستاناً قصيراً بذات اللون. تتمايل يمنةً ويسرةً والشمس تشرق في وجهها الضاحك ومن ثم يباغتها بصافرة شقية وعبارات هازئة مثيرة للحنق ..
كم يحب رقصها، ولكن ممازحتها والشغب معها له مذاق أشهى.
همس .. -" أنتِ قصيرة ، رقصك سئ جداً "
-" ومن طلب رأيك ؟ "

-" لا أبدي رأي وإنما أخبركِ حقيقة يا قصيرتي "
-صارخة بحنق " أماه ، خذي ذلك الشاب الغبي من غرفتي "
-من الخارج " عصام ، لا تزعج أختك "
-" أنا لا أزعجها؛ ولكن فقط أريد منها أن تقلع عن عادتها الغبية. ابنتك ربة الصون والعفاف تتراقص وتتمايع في الغرفة ليل نهار. أحسني تربيتها يا أماه من فضلك "
لم يكد ينتهي من عبارته حتى جاءته الوسادة من حيث لا يدري لتصطدم بوجهه الرائق .
من المؤلم أن نفاجئ بأن أحلامنا وزهرة عمرنا أصبحت مسبقة بكلمة "كان ، كانت ، كانوا" .. مريرة هذه الكلمة. تسعر نار الفقد في القلب كلما نطقت وانفرج حرف الكاف فيها بين شفاهنا.

همس مجدداً لها وهي راقدة في المشفى
-" صباح الخير يا خير الصباح. صباح الصبا والتصابي والصبابة .. هل تعرفين يا أخيتي أنني ظللت تسعة عشر عاماً أكتم في نفسي شيئا أود الاعتراف به الان .."
أناملها الباردة بين يديه تطلبان منه أن يعترف بالفعل ، سكون يجتاح جسدها ولا شئ يعكر صفو صباحها سوى همسه وهمس الأجهزة الطبية التي تومض بانتظام وتصدر ذات الصفير ..استكمل حديثه ..

-" طوال عمرٍ قصيرٍ قضيته معكِ لم يساورني أبدا ذلك الشعور باحتياج أخ ذكرٍ مثلي، بالطبع لست الأنثى المكتملة، ولا أقصد أنكِ قبيحة لدرجة أني كنت أعتبركِ أخي فعلاً.
صبا صدقيني أنا لا أعرف كيف أتحدث معكِ وأنت خافتة هكذا. اعتدت صراخكِ في وجهي وغضبك وشتائمك. تعودت على أن أمسك بكِ من قفاكِ ليعلو صراخك ثم تنزلين عليّ جام غضبك. تعودت أن أخطف من طبقكِ الطعام .. هل تعرفين أن مذاق الطعام المخطوف من طبقك دائماً ما كان أشهى، ودائما ما كنت تسامحينني فيه. هل تذكرين ذلك اليوم ؟؟ هل تذكرين يا صبا ؟ "

ارتفع صوت نشيجه وهو يحدثها ويحرك يدها بعنف لكنها لم تستجب لمحاولاته في اجتذاب روحها. خفض رأسه ليلصقها باليد الميتة والفراش الذي يتسمع لحديثه طوال ليل محموم بالعبرة.

الصبر عقوبة جيدة لمن لا يطيق الانتظار. ما زالت الأم في رحاب القرآن غارقة، وما زال النشيج مستمرا ، والذكريات المؤلمة تطوف بالأركان.

رغبة جامحة تملكت منه في أن يسرد لها حكاية .. ترقرقت عيناه مجددا وهو يرمق أمه بنظرة مشفقة. لم يصب بالغيرة من حزن أمه على شقيقته، ولكن الكراهية السوداء ملأت قلبه تجاه الموت. وتمنى أن يلتقيه رجلاً لرجل بشرف فيقتتلان في لعبة متكافئة الأطراف.

عودة الروح

مجدداً يمر يومان وأنا يتيم بلا روح ، غابت وصار غيابها وجعاً لا أعرف له دواءاً. فكرت في كتابتها كي أشفى من شوقي إليها. يومان و أنا غارق بالورق، ولا شئ يكتب سوى اسمها النقي وكلماتها."كاتب الرعب يشاركنا مخاوفه، الايمان يبتدئ من تصديق ذاتك"
شعرت بأن كل ساعة تمر بدونها أغرق في السؤال عنها والتفكير فيها.سألت عنها الزهور في الطرقات وسحاب السماء في ساعة الفجر وغناء البلابل في الاصيل والفراشات؛ كلهم لا يعرفون لها طريقاً. كلهم خائفون وهي وحدها لا تخاف.

في صباح ثالث من صباحات فقدها، جلست أطالع كتاب الروح فأتت. فانشرح صدري.
-" ماذا تقرأ ؟ "
-" لن أخبركِ " خبأت الكتاب عنها وأنا أشبع عيني برؤية وجهها وارتوي من بحر عيونها.
أتت كالمسافرة تلهث ولكن بها طمأنينة عجيبة ، مسحت على شعري وشعرت بملمس يدها ! ، أتت من ضوء الشمس الساقط على معطفي.راودني شعور مخيف بأنها تنام في معطفي ليلاَ .. همستُ بنبرة حرصت على أن تبدو مشبعة بالغضب : " أين كنتِ ، ألن تكفّي عن الاختباء ؟ "
-" الإختباء لعبة مثيرة ، ظننت أنك تحب الغموض "
-" لا بل أحب الوضوح "
-" وأنا أحب الإثارة ! " كانت ترفع حاجبيها وتمط شفتيها وكأنها تريد إغضابي وإثارة حفيظتي. تركتها جالسة بجواري ولم ابح لها بشوقي .

-" ألا تريد اللعب ؟ "
-" لا " شوقها يفوق شوق بنات حواء جميعهن. شوقٌ له مذاقٌ شهي منكّها بالخجل.

تشاغلت عنها بالكتاب ورحت أغوص في كلمات ابن القيم فقامت على أطراف أصابعها كراقصة "باليه" ماهرة. تجولت في الغرفة هنا وهناك. نظرت إلى المكتبة وأخذت تفتش فيها مرة أخرى. في كل مرة تأتي إلى مكتبي

تقف أمام المكتبة والفضول يطل من عينيها ووجهها الطفل.
شردت عنها وشردت عني. تناسيت شوقي الذي يقتلني عطشاًإليها. فوجئت حين رمقتني بأن ما مضى من عمري مضى ولم أتذوق بعد حلاوة الحب فعلا. ما ابشع عمرٍ يخلو من الحب.
باغتتني والقت عبارتها :

-" أريد اللعب فعلاً. جولة قصيرة من أجلي" كانت صبا تتوسل لعمر بعينين يملأهما الرجاء والدلال معاً.
-" أرى أنكِ تعشقين هذه اللعبة " .. قال متعجباً.
-" لأنها تجعلني أطيل الحديث معك فاعرفك وتعرفني. الرجل مخبوءٌ تحت لسانه يا صديقي "
-" والمرأة .. أين تختبئ ؟ "
-" المرأة تختبئ في حضن الرجل الذي تحب" سبقت هذه العبارة ابتسامة خجل فائقة الجمال ثم تليت بتنهيدة متبوعة بنظرة طويلة إلى الأرض من عينين ملائكيتين مما جعل عمر يهوي صريعا في حبها.
-" حسناً، لنلعب .. ابدئي" لم يستطع منع قلبه من الخفق بشدة. شعر بأن الكون كله يخفق ويعشق في هذه اللحظة كما يعشق هو. شعر برغبة تجتاحه كالفيضان. رغبة في احتضانها بكل ما يملك من قوة ورجولة وحب.تمددت امامه على الأريكة التي يحبها، فقام من مجلسه على مكتبه وجاء على الأرض فوق السجادة الحمراء الشاهدة على كل بطلاته ونهايات رواياته ومآسيه. جلس ناظرا إلى حوريته وهي تنظر إلى سقف الغرفة.

-"حدثني عن الحب "
شخصت عيناه وتجمدت بسمة خائفة على شفتيه، وتساءل متردداً كالتائه.
-" الحب !! "
-"نعم!! .. فيلسوف الحب ومربي أجيال من العشاق ولا تعرفه ؟ مستحيل"
ليست هذه هي صبا التي زارته في أول مرة. تلك كانت صبا الهائمة الخائفة الهاربة، أما هذه،فقد شعر عمر تجاهها بأنها قاتلة، لصة، ساحرة شريرة تسلب منه غرضها ثم تطير إلى عالم لم ولن يستطيعَ الوصول إليه. وبالرغم من ذلك،تراوده فكرة بدت ساذجة لدرجة أنه تكبّر عن الاهتمام بها داخل عقله !
-" الحبُ يا صغيرتي حربٌ "

-" لا تقل صغيرتك .. أنا كبيرة. عمري تسعة عشر عاماً "
-قال مبتسماًأما أنا فقد أتممت الخمسين منذ أيام، والآن أخطو خطواتي في العام الأول بعد الخمسين. هل تدركين ذلك يا صغيرتي ؟ "
-بتردد " آآآ ، ماذا تقصد ؟ "
-"إذا قمت بعملية حسابية صغيرة ستفهمين قصدي أيتها الحسناء الصغيرة"

ملامح الحزن التي بدت على وجهها أطفأت النور من عينيه وهو ينظر إلى خجلها وخيبة أملها المرجو. تعجب و أخذت الأفكار تدور في رأسه .. إنها فتاة ساذجة نسيت أنني في عالم آخر قد أكون جدها وليس فقط أبوها.
-" حسنا ، وماذا تريد ؟ "
-" لا تعترضي على أي نداء أناديكِ به ، فلبعض النداءات لذة خفية "
-" لنكمل لعبتنا ، كيف يكون الحبُّ حرباً ؟ "
-" حسنا، لنكمل، ولكن أخبرينيأولاً؛ ما سر حبكِ للموسيقى الصوفية وأين هي الان؟ "

الآن يقف عمر في موقف قوة من صبا التي أتت إليه مشتاقة للعب فبات يراوغها مستمتعا. نظرت إليه ثم همست وهي منزعجة من مراوغته لها.
-" عمر ، لا تبتزني أرجوك "
-" أنا لا أفعل ذلك يا صغيرتي ولكن أريد أن أبادلك سرا بسر؛ كالعصابات والسحرة "
-" ولكننا لا نعترف الآن ، أنها مجرد لعبة وليست لعبة الصراحة للعلم "
أمسك عمر بلحيته التي خللتها شعيرات بيضاء وأطرق دقيقة ثم رفع رأسه لينظر إليها في نظرة تحدٍ وهتف :
-" حسنا لنلعب لعبة الصراحة "
-" لا بل لعبتي أفضل ، هيا ، أرجوك "
مدللة كالاطفال، شقية مثلهم شهية أيضا مثلهم، تمسك بتلابيب قميصه تجذبه نحوها ثم تفلته وهو غارق في توسلها البرئ. ساورته أمنية تمنى للحظة أن تكون حقيقة ولو يوماً واحداً في عمره.
تمنى لو أنها طفلته وتطلب منه ان يسرد لها حكاية ما قبل النوم. ترى لو كانت بالفعل ابنته هل ستحبه بهذا

القدر؟ ترى هل ستشتاق لأن يحكي لها حكاية وتتوسل في سبيلها هكذا ؟!
لمعت عيناه الدامعتين أمامها وهي تجذبه من قميصه مجدداً وتتباكى أمامه كي يكمل حديثه عن الحب .. فتنهد وقال :
-" الحب .. قالوا عنه أنه مرض ولكنهم ظلموه. أي مرض هذا الذي يبدل الحياة من الظلام إلى النور. الحب كمال؛ نقصه عين الكمال. فما الحب إن لم تشعر الروح بالسكن مع من تحب؛ وما الحب إن لم يكمل كل منهما الاخر. الحب حالة من حالات الإيمان يا صغيرتي .."
-قاطعته : " لذلك تحديداًأحب الموسيقى الصوفية يا صديقي الكبير "
نظر إليها متعجبا وما أكثر تعجباته برفقتها. هتف باستفهام مندهش :
-" تعرفين الصوفية وفلسفة الحب الصوفي ايضاً ؟ "
-" حدثني عن الحب الإلهي "
-" الحب لا يتجزأ ، ولا يصنف ، ولا يتشكل "
-" ولكن حب الإله يختلف "
-" حب الإله هو سر الروح الذي لم يطّلع عليه أحد البشر منذ بدء الخليقة، ولن يطلع عليه بشر حتى نهاية الكون. وكل ما نشعره وما نلاقيه من مشاعر تجاه البشر ما هو إلا تجليات من حب عظيم تسمينه انتِ الحب الإلهي. الحب يا طفلتي هو الذي يقودك نحو الصانع ويجبرك على الانكسار بين يديه. الحب هو الإيثار، هل تعرفين الإيثار؟ "
-"أجل أعرفه "
-" جربتيه ؟"
-" وكيف أجربه ؟! "

كانت صبا تنظر في عيني عمر وكأنهما نهران من الأسرار. عمقٌ غريبٌ بدا فيهما للمرة الاولى وربما كانتا عميقتين منذ الأزل، ولكن صبا لم تدرك ذلك سوى الآن. شعرت بحديثه يلمسها، يتغلغل بداخل مسامها الدقيقة وكأن كل حرف ينطقه يتحول إلى علامة استفهام جديدة تعلق أمام عينيها ، فكرت في عمرها القصير فوجدت انها خاوية. حزنت وهي تلقي برأسها للوراء بينما استكمل عمر حديثه عن الحب.

-" عزيزتي ، الحب هو أن يخضع عقلكِ لقلبكِ وتغمضين عينيكِ وتسيرين في طريق مجهول بلا خوف فقط لأنكِ مع من تحبين "
-" ثقة عمياء؟ "
-" كذب من قال أنّ الحبَّأعمى و أنّ الثقةَ عمياء. كلاهما كشف وضياء، ولكننا أغبياء يا صغيرتي "
-" الثقة والحب متلازمان"
-" ليست قاعدة. وإن كانت، فلكل قاعدة شواذ "
-" أين أنت من الحب ؟ "

من دون أن ندري تسقط اقنعتنا في حضرة من نحب. وربما لأن القناع الهش لا يصمد كثيراًأمام الروح.هجمة تلو الأخرى تقوم بها صبا عليه؛ وهو لا يستطيع أمامها أن يواصل الصمود. ولا يفهم لماذا ترك نفسه للسقوط بها. همس وهو يتمنى أن لا تتبع إجابته بسؤال أشد خطورة.

-" وقفت على بابه خائفاً ولم أدخلْ "
-"أي باب ؟؟ "
جاء السؤال بريئاً من بين شفتيها. محملا بالآثام عندما وقع على أذنيه. نظر إلى النافذة الوحيدة ثم ارتد بصره إلى النبتة الوحيدة المصلوبة على جدار غرفته فالتفتت صبا بدورها إلى هذه النبتة وتساءلت :
-" إلى ماذا تنظر ؟ "
-" إلى هذه الشجرة ، انظري؟"
-ملتفتة إليه " ما بها ؟ "
-تنهد قليلا ثم همس " لا شئ ، لا تشغلي بالك "
-" اشتقت إلى أمي "
سقط الحزن على راسها فجأة كما لو أنها استفاقت من غفوة في هذه اللحظة. نبرةصوتها مجروحة وكأنها تبكي منذ ساعات طوال، رغم أنها كانت قبل ثوان معدودة في أشد حالات الهيام والسعادة. أمسكت بيده وسحبت جسدها لتجلس أمامه على الأرض. أخذ رأسها على كتفه وترك روحه تنغمس في دموعها. حزن لحزنها وأخذ يواسيها وهو لا يفهم ما بها.

-"اهدئي يا صغيرتي، لا تبكي رجاءاً"
-" اشتقت إلى أمي يا عمر، حنيني يكاد يغرقني "
-" لنذهب إليها الآن، ما الذي يمنعك ؟؟ "
-" أشتاق إلى حضنها، هل تفهم ذلك ؟"
-" حسناً، نذهب إلى هناك وترتمي على صدرها حتى يرتوي عطشك "
-" عمر، أنا روح، هل تفهم ؟ "
طال عناقهما، لاذ عمر بصمت لم تفهمه صبا، غرق في ماضيه .. باغتته سنوات عمره الماضية.
جرى أمام عينيه شريطٌ سينمائيٌ بطيء الدوران، يعرض عليه صوراً تؤلم روحه.

الصورة الاولى ...
في حديقة كبيرة سار عمر"يافعاً" برفقة فتاة قصيرة سمراء؛ ترتدي فستاناً أزرقاًوتمسك بين ذراعيها كتابين يريدان قضاء ما بقي لهما من الحياة على صدرها. قسمات وجهها تشبه بذور القمح في رقتها ودفئها وأصالتها. لها عينان يفيض منهما الليل؛ وجدائل سوداء طويلة سكبت على ظهرها حتى لحقت بنهايته.

-" وما الحل يا عمر ، هل ستتركني ؟ "
-" لا أدري "

كانا عائدين من درس خصوصي لمادة من مواد الثانوية العامة التي لم تكن آنئذ بالصعوبة التي يواجهها أبناء الأمس من جيل احفاد عمر .. إن كان له أحفاد .!
وقفا في وسط الحديقة وهو يرتدي قميصه الأبيض الناصع وشعره المصفف على جانب رأسه. كان على قدر عالٍ من الوسامة والرقة ولكن الحزن الذي اعتلا وجهه كان صارماً.
تلك هي أول مرة يشعر فيها بالضعف. الضعف الذي يواجه كل شاب في هذه المرحلة. حبيبة تقتحم عذرية مشاعره ثم ترحل مخطوفة بذراع خاطب مجهول. ودائماً ما يكون مستعدا أكثر من ذلك العاشق الذي يبتدئ لتوه أولى محطات الحياة.

في الصورة الثانية ...
بهو فسيح على طراز قديم. لونٌ بنيٌ يغطي مساحة مد البصر. الأثاث والستائر والأبواب كلها درجات متفاوتة من البني الكئيب الذي يبعث على النوم والصمت والعزلة.
وقف عمر "شاباً"أمام والده الذي لم تكن له لحية ولكن له الملامح ذاتها، ونظرة الغضب ذاتها. أسف شديد يطل من عيني عمر في مواجهة ملامح أبيه الحازمة.

-" ولكن يا أبي ..." قال بصوت امتزجت فيه نبرة الخيبة ونبرة الرجاء والتوسل.
-" لكن ماذا ؟ هل ستخرج عن طوعي ورغبتي ؟ "
-" ولكن .. أنا أريد .."
-" ماذا تريد ؟ هل تريد عصيان أوامري ؟؟ "
-" ولكني لا أحب دراسة الحقوق "
-" الدفاع عن حقوق الناس وتحقيق العدالة لا يجب فقط أن تحبه بل يجب ان تتشرف لأنك تقوم به . ها انا ذا وجدك من قبل. رد المظالم عمل عظيم يا بني "
-" ولكن يا أبي .. " قالها بذات الخيبة بل أشد.
-" لا أحب الحديث الكثير .. الآن عليك أن تستعد لما هو آت. أريدك قاضياً تحكم بالعدل"
لم يجد عمر بداً مما يأمره به والده .. ليصبح الطالب (عمر حسن المصري) على أمل أبيه الذي يريد منه أن يرث القضاء .
لعنة الإرث تلحق بنا دائماً. نرث الخلق والخلقة والطبيعة. ألا يكفي أننا نأتي إلى هذه الحياة رغماً عناً ، وبدون استشارتنا. هل يجب على الأبناء دائماًأن يكونوا مجرد أدوات لتحقيق رغبات الآباء ؟

باغته همس صبا على كتفه وكأن صوتها ينبعث من بئر عميقة ..
-" أرى في ذلك ظلماً كبيراً "
-" في ماذا ؟ " دهشاً سألها وهو ينظر إلى وجهها الغارق في الدموع ، فقالت بصوت مغمغم بالضحك :
-" متى تصدق أنني أسكن أفكارك ؟ "
شخصت عيناه وتراجع عنها قليلا فبقيت على هيئتها منحنية الرأس والخصر منكفأة تستند على الفراغ. لم

يستطع لفظ كلمة أخرى وظل خافتاً لا يعرف ما سر الفزع الذي دب في صدره تجاهها فجأة ..
-" أخبرتك مراراً ولكنك غبي.أنا لست بشراً يا عمر؛ والبشر فقط هم من يعانون من محدودية كل شئ. كل شئ لديكم بقدر معلوم لا ينبغي تجاوزه لأن العقل لن يستطيع تحمله "
-" ولكنكِ كنتِ بشراً مثلنا "
-" كنت .. ها انت قد قلتها .. كنت "

الحيرة تجعله يتعرق كثيراً وأناملة تزداد برودة، ولكنه يحاول السيطرة على خوفه غير المبرر. اقتربت منه فابتعد عنها فاقتربت وهي تنظر إلى عيناه نظرة قاسية للمرة الاولى
شعر ان زرقة عينيها ليست سوى بركان على وشك الانفجار. مدت يدها إليه فمد يده هو الآخر. غرق الكف الشفاف الصغير في كفه الكبير، وسرت بجسده القشعريرة المعتادة .. فقال بنبرة مستسلمة :
-" والآن لا ينبغي عليّأن أتحدث "
-" لماذا ؟ "
-" لأنك تسكنين أفكاري. إذن فلا داعي للحديث لأنكِ تعرفينه كله "
-هتفت بحزن " ولكني أحب حديثك "
-" حتى أنا أحب محادثتك ولكنك دائماً ما تقولين أنك تسكنين أفكاري فيراودني ذلك الشعور وكأنني ألقي نكتة ركيكة وأنتِ تضحكين مجاملةً ".
-ضحكت صبا حتى انكشف غيم الحزن عن وجهها الملائكي وقالت "أحبك أيها العجوز الجميل"
-"عجوز !"
-" الآن أنت تفكر مثل العجزة .. بحساسية وخوف وسوء فهم "
-" هل متِ فعلا يا صبا ؟ "

ترددت قليلاً وهي تنظر إلى لهفته وسؤاله الذي يقطر أسى ثم قالت:
- " هل أخبرك شيئا ؟ "
-" نعم "
-" أشعر أنني ... آآ " .. ريبة ما تطل من وراء حديثها المتقطع وريبة أخرى تنبعث من خلف باب الغرفة ، ثمة

خطوات ما تقترب بهدوء؛ وظلال تومض من أسفل الباب!
-" ما بكِ ؟ "
-" أنظر .." أشارت بيدها نحو الباب فالتفت عمر ثم ضحك ضحكتهالمعتادة على أمر ما ، فقال هازئا
-" هذا هو موعد كل ليلة "
-" زوجتك ؟ "
-" كيف لم تعرفي هذه ؟ "

وقفت صبا وراحت تخطو خطوات هادئة نحو باب الغرفة وهي تكمل حديثها:
-" قد أسكن افكارك ولكن لا أطلع على أفكاركل من حولك؛ وقد أسكن بها ولا أستطيع الإلمام بها كلها.أنت نفسك لا تستطيع فهم مشاعرك كليا"
-سأل متعجبا .. "كيف ؟ "
-" أنت مثلاً، هل تجد لي مبرراً واحداً يجعلك تجلس معي حتى هذه الساعة بدلاً من أن تذهب وتجلس إلى زوجتك المسكينة التي تحبك كثيراً ؟ هل تستطيع فهم المشاعر التي تفيض بداخلك كلما حضرت. لست مراهقاً يا عمر والحب لا يحدث بين ليلة وضحاها. فكم من أناس عاشوا معاًلسنوات طوالولم يحب أحدهم الآخر".
-" حديثك فيه السؤال والإجابة يا طفلتي.أنا أكبر من أن أصدق قصتنا إذا سردها لي أحدٌ،لكن الذي ينفّر القلوب عن بعضها بالرغم من طول العيش هو نفسه القادر على أن يؤلف بينها بين غمضة عين و انتباهتها "
-" أشعر بالله في حديثك "
-" الله معنا، بداخلنا، في قلوبنا، ومشاعرنا التي تفيض كما قلتِ ".
-"أحب حديثك يا صديقي ولا أملّ منه حتى وإن كنت أعرفه؛ ففي سردك مذاق مختلف عن تلك الصورة التي أشعر بها بداخلك ، الأمر جداً مختلف".
-" حسنا، ولكن أريد أن اسمعكِ ولا أريد هروباً جديداً. قولي لي ، هل متِ فعلا ؟ ".

غرسأحدهم في صدره بذرة أمل ونبتت برجاء كبير يطل من عينيه العميقتين. رمقته وهي تفكر وهو لا يعرف فيم تفكر ، ثم همست لتروي عطشه :

-" لا أدري ، هل مت فعلاًأم لا ، ولكن ... " ترددت ولم تكمل عبارتها لتضع طرف إصبعها في فمها. طفلة حائرة تجول غرفته وهو يتابع بتلهف. فجأة انفرج الباب لتطل منه عيني زوجته شاخصة وهي ترى زوجها متربعا على الأرض. هتف وهو ينظر لها بحنق :
-" ماذا تفعلين ! "
-اعتدلت زوجته وخبأت غضبها منه داخل معطفها الذي أمسكت بطرفيه لتحكمه على خصرها. كانت تعتصر حيرة بداخله. قالت بارتباك "ما الذي يجلسك على الارض ؟ "
-" أحب هذه الجلسة كثيراً "
بجانب الباب وقفت صبا تنظر إليها من أعلى إلى أسفل ومن أسفل إلى أعلى. ومن ثم تتمايل في مشيتها وتقلص ملامح وجهها في محاولة للاستهزاء بها؛ وعمر على الأرض لا يستطيع كتمان رغبته الأكيدة في الضحك. مشهدٌ لم يمر عليه طوال حياته.
-" حسنا ، جئت اتفقدك. خشيت أن تحتاج شيئا وأنا نائمة، لكن يبدو أنك مستمتع بجلوسك على الأرض وحديثك معهم "
-" مع من ! "
ثبتت ملامح عمر وكاد يسقط مغشياً عليه، بينما اقتربت صبا من وجه زوجته حتى كادت تلمس وجهها محدقةً بها وهي تهدر كالماء المغلي في وجه عمر.

-"أولئك الذين تنظر لهم الآن وتضحك، وتحادثهم ليلا ، وتحلم بهم، الجميلة التي تناديها كل ليلة في نومك "
-" أنا ؟!"

انفجرت صبا ضاحكة ولم يستطع هو كتمان خجله وتعرقه أكثر من ذلك. لا يعرف بماذا يجيب.
ثمة فضيحة ما تحط على كتفيه الآن وهو صامت مستسلم لها.
-"سأذهب للنوم يا حضرة الأديب "
-"سألحق بكِ بعد قليل "
-"لن أنتظرك، فهذه هي عبارة كل مساء وفي الصباح أجدك مرمياً على سجادتك"

غادرت زوجته وهي تتميز غيظاً بينما تتقافز صبا ضحكاً ولهواًأمام عينيه. لم يشاهدها سعيدة لهذه الدرجة من قبل. وقف مندهشاًأمام فرحتها كالأطفال .. ثم تساءل

-" الهذه الدرجة !!"

-" الهذه الدرجة تغار عليك زوجتك ؟ "

-أمسك بذقنها وهو يقف أمامها " ألهذه الدرجة تغارين أنتِ "

ماتت ضحكتها الراقصة على وجهها وحل محلها خوف ورعدة سرت بسائر جسدها البض.أمسكت يده التي تمسك بذقنها وهي تنظر إلى عينيه مباشرة وبهدوء قاتل أعادت يده إلى جواره وهمست :

-" أنا ميتة فعلاً "

وكأنه يعرف الخبر للتو، فاجعةٌ من نوع خاص حلّت بقلبه واستعمرت كيانه. نظر إليها وهي ترجع إلى الخلف لتجلس متربعة بوسط الغرفة واضعة يديها على ركبتيها متخذة وضع اليوجا الشهير؛ ثم أغمضت عيناها وهمست برقة.

-" شاركني بعض لحظات الاسترخاء والهدوء "

-" هل تمارسين اليوجا ؟ "

-" هي رياضة روحية مفيدة لي الآن أكثر" ثم ضحكت باستخفاف أثناء اعتدال عمر في جلسته.

-" حدثيني عن الموت "

-" الموت ! "

-" حيث أنكما التقيتما من قبل، أريد منك مواصفاته، هيئته، كيف تذهبين أو كيف يستخلص روحك من جسدك، هل تتألمين ؟ "

شعر عمر في هذه اللحظةِ بأنه طفلٌ يقف بجوار أمِّه في عيادة طبيب أسنان ويسالها ببراءة هل حقنة الطبيب تؤلمنا ؟ .. شعر بالخوف ذاته والرجاء ذاته. راوده احتمال أن قسوة الموت ستنخفض إذا ما اكتشفه قبل أن يلتقي به ..

-" هل أخبرتك سابقاً أن الموت لا يُرى ؟! "

-" ولكننا كثيراً ما نجد من يقول " رأيت الموت بعيني رأسي "

-" الموت أصغر وأجبن من أن نشاهده.أتعرف أنه يشبهك ! "
-" يشبهني ؟؟"
لم تكن هذه هي المرة الأولى من مرات الاندهاش، لكنها كانت أكثرهن وأشدهن عجباً. حديثها يشبه حديث العرافات والغجريات.

-"أجل، هو يختبئ في كونه مجهولٌ خفيٌّ. عندما نلتقي به تنقشع ظلمة الخوف وتتبدد مخاوفنا الصغيرة منه لأنه صغير. هل فكرت يوما بأن الموت ما هو إلا أداة صغيرة تنفذ أوامراً تلقى إليها؟ ولماذا ؟ لكي ننزلق من هذه الأداة إلى عالم آخر وحياة ثانية تنتظرنا"
-"هل تؤمنين بالحياة الأخرى ؟ "
-"وهل لديك أي مجال للشك ؟ "
-"وما دليلك ؟ "
-"لا أريد دليلاً لشئ أعتبره يقين"
-"والحساب والعقاب؟ "
-"قد يكونان حقيقةً وقد نُبعث ونُحاسب وندخل الجنة؛ ولكن .. لماذا لا تقل معي أن الحساب والعقاب والجزاء والثواب ليسوا إلا معتقدات وضعها الإنسان الضعيف لكي يشعر نفسه بأمان زائف؛ تماماً كما تقول الأم لأبنائها سيأتي أبوكم ليعاقبكم و الحقيقة أنه لن يأتي؛ لأنه ميت !! "
-"ماذا تقصدين ؟ "
-"لا اقصد شيئاً ، فقط أفكر "
-"هل الأرواح تفكر مثلنا ؟ "
-"لا أدري، ولكن .. ها أنا ذا ، روح برفقتك ، وافكر "
-"أنتِ ؟! "

الشك يفوح من كلماتهوهي تنظر إليه خائفةً من كلمته التي بدت سؤالاً استنكارياً لا وجه له.
سؤالٌ غامضٌ يشبه الموت.
-"ولكن فيم يشبهني ؟ "

-"يشبهك فقط من حيث الغموض والرهبة والشهرة، أنت وهو تتفقان في أن لا يراكما أحد على حقيقتكما.أنت وهو تنتظران الإنسان في النهاية. هو في نهاية العمر وأنت في نهاية القصة.أنت وهو لا تحبان الحياة بل تحبان نفسيكما.أنت وهو صغيران جدا. صغيران لدرجة أن لا أحد يستطيع رؤيتكما"

-"أأنا بشع لهذه الدرجة ؟؟؟ " ..

حزن يسيطر عليه ويعريه من خيلائه أمامها. بهتت مشاعر الإعجاب واللهفة التي سيطرت عليه منذ لقائها الأول. والآن يرى نفسه ساقطاً في قفص محكمتها. كم يكره المحاكم وكم يكره القضاة !! لماذا ظهرت إليه مشبعة برغبتها في أن تكون قاضية ؟!

همست بصوت خافت وهي تغمض عينيها مجدداً.

-" مواقفك دائما سلبية ، لماذا يقودك الخوف ؟ "

-" كيف ؟ ماذا تقصدين ؟ "

-" أقصد ما فهمته يا صديقي. قصة حبك، حلمك، رغبتك في السفر – بالرغم من رفضي لها - ولكن لماذا تنازلت عن كل ذلك؟ هل أحببت والدك هكذا ؟ أم أنك جبان ! "

أغضبته كلماتها .. التفت فزعاً ينظر إليها وهو لا يدري كيف سيدافع عن نفسه، ولكنها اختفت !

تركت له سؤالاً قاتلاً ورحلت. تلعب معه لعبة سيئة جداً .. ولكنه لا يريد الخسارة.

وقف في وسط الغرفة وهتف بصوت يشبه الصراخ؛ لا يدري هل يناديها أم يبكيها أم أنه يهتف باسمها ليتأكد من رحيلها ..

-" صبـــــــا .... صبـــــــا "

لا يأتيه رد. نداءات كثيرة صعدت من صدره حاملة معها أوجاعاً وآلاماً فجرها فضول طفلة تركت الموت على عاتق أمها وجاءت تعبث به وبأفكاره وماضيه.

منحنى منحدر

خطوات حائرة على الطريق، هدوء يلوح في الافق متخفياً.ومن النافذة تطل زوجة عمر و النار تأكل عشقها والشك يفتك بالقلوب.
من الصعب على امرأة في سنها أن تقبل الحياة برفقة رجل يقف على حافة الجنون. الخوف يثير مشاعرها ويبعثرها فتقف أمام المجهول مجردةً من الإيمان ..

قبل أعوام عديدة تزوجت منه؛ تلك الزيجة الغريبة التي لم تستطع فهم الحكمةِ من ورائها.
غاضبة خرجت من منزلها وراءه وهو يجرجر حيرته وقدميه شارداً غير واعٍ للفراغ من حوله وصوت ندائها الصارخ يشق الصمت فيقتله.فستانها الأسود ووشاحها الذي وضعته على شعرها غير المصفف جعلاها تبدو أكبر سناً من عمرها الحقيقي. اقتربت قليلاً من نهاية العقد الأربعين، لكنّ جمالها العادي يسقطها من قائمة السيدات الجميلات اللاتي يعشن حياة مستقرة؛ يسقطها من قائمة السيدات اللاتي يشعرن بالثقة في أزواجهن. بالرغم من أنها عشقته واستسلمت لصمته وهدوءه وحبه للكتب؛ استسلمت على مدار سنوات عديدة لصخب الملل وشعورها المميت بالوحدة. التقيا في دائرة سوداء ظنت حينها أنها غمة وستنكشف بانتهاء فترة الحداد على والده ولكنه أبقاها قائمة.عاشت حياتها في تلك الدائرة بعد أن اختارتها أمه و أحكمت سيطرتها على كل شيء .

لن ينسى لأمه هذه الطعنة. لقد انتزعته من حالة العزلة العاطفية التي دخل فيها بعد فشله الاول، ودفعت به في طريق يقتل الحب إن كان حياً. فما الحال ان لم يكن هناك حب بالاساس ؟!
تزوجها رغما عنه لإرضاء أمه وتحقيق رغبة تقليدية تعاني منها الام المصرية بشكل عام وأمه المسكينة بشكل خاص. أمٌ رحل عنها زوجُها بعد أن كان عمر يعتمد عليه في البقاء بقربها لأنها تخاف الوحدة وتعاني من السكري البغيض. من الذي سيتبنى رعايتها والسهر على راحتها بعد وفاته؟ لم يكن لديه حل آخر .

بعد خطوات بعيدة عن المنزل اليتيم في منطقة خالية تقريباً لا تقع إلا في الخيال أمسكت أخيراً بذراعه تجذبه صارخة.

-" ألا تسمعني ؟ "
-"....." لم يبد لها أي انفعال يدل على أنه يسمعها.

غارق في تفكيره وحيرته. ترى هل كان فاشلاً وجباناً فعلاً ؟ أم أنه كان مجاهداً في سبيل الاستقرار ؟ و ما الإستقرار ؟ هل هو فقط أن تسكن منزلاًتملكه في مدينة شبه خالية وترافق امرأةلا تعرفك ولا تؤمن بك!؟ كل ما يربطكما معاً بعضاً من ابر الانسولين وورقة يقال لها في شريعة المحامين عقد زواج ، ثم مجموعة من التفاصيل التي لا تحمل له أي معنى.

هتفت زوجته وهي تتململ بجانبه في ضجر وبكاء
-" عمر ، ماذاأصابك ؟ هل جننت ؟ "
-.....

لقد جن بالفعل لانه يحيا هذه الحياة المغصوب عليها. لا يريد استكمال ما بقى له في هذه الحياة بالطريقة ذاتها. يجب عليه أن يكون شجاعاً ولو ليوم واحد. المواجهة لابد منها.
-" إلى أين تذهب ؟ هل ستتركني في هذا العراء ؟ حدثني أيها المخرف، أُنظر إلي "

عندما ترك إبراهيم هاجر في العراء لم تنعته بالمخرف؛ ولم تغضب كل هذا الغضب بل استسلمت لرغبته وعلمت أن بها حكمة ما. لقد شاء الله ومن بعده إبراهيم أن يكرما هاجر ويختبراها اختبار ما قبل أمومة نبي؛ وقد نجحت في الاختبار. لكنّ زوجة عمر لا تستطيع أن تكون أما لنبي؛ بل إنها لا تستطيع أن تكون أما لأي طفل.
وقفت زوجته وقد يأست من فهم ما أصابه من سكون وغموض. وقفت على قارعة طريق خالٍ بوشاحها كالتائهة، ثم هتفت بعبارة لم يرد عمر إلا أن يسمعها.
-" طلقني يا عمر "

لقد أطلقت على عقله رصاصة رحمة حررته من قيدٍ تحَمّلَه سنوات عدة. ها هو الآن حرٌ بعد أن وقّعت زوجته

– سابقاً – صك الغفران والعفو عنه.
هو لا يعرف كيف تفوهت بعبارتها ولا يذكر كيف نطق رده الذي كان حتماًيحمل تلبية سريعة غير مترددة. ولا يعرف تماماً إلى أين رحلت عنه. سافرت ؟! .. ربما؛ ماتت ؟! .. يعتقد؛ انتحرت ؟! ... لما لا ؟في النهاية أصبحعمر وحيداً باختياره، سعيداَ بوحدته.
جلس على الأرض مستعداً للقاء صباه التي غادرت في وقت بدا له في تلك اللحظة مناسباً.
مع الغروب بدأت روحه تسقط في عالم الوحشة .. لا يبدو الظلام أليفاً هذه الليلة. عاد إلى منزله. ما زالت رائحة زوجته تملأ البهو والردهة والغرفة وحوض الاستحمام. مازال الخوف عالقاً على مشجب عمره الموشك على الإنتهاء.

ما الجميل في طلاق رجل تجاوز الخمسين بخطوة من امرأة كانت تؤنس وحدته حتى وإن كان هذا الأنس ليس إلا مجموعةً هائلةً من الشجارات اليومية. لقد اختفت معالم البهجةباختفاء الفتاة الأولى من حياته.حتى هذه اللحظة لا يستطيع احترام نفسه أمام سؤال صبا .. هل أحب والده أكثر من تلك الحبيبة أم أنه فقط جبان ؟! .. ترى أين تطبع صكوك الشجاعة وكيف تكتسب ؟
هل الشجاعة صفة مكتسبة فعلاً ؟ ومن أين تكتسب ؟! ..
غرق عمر في استفهامات متوحشة تبتلعه حتى جاء الصباح الذي تأخر كثيراً عن موعده، فقام إلى جريدته بذات الوجوم المعتاد.

أول ومضة على طريق النهاية

أين يبحث عنها ؟تابع عمر قراءته في كتاب الروح على أمل أن يجد إليها سبيلاً حتى وقع أمامه حديث ابن القيم :

"هذه مسألة عظيمة تكلم الناس واختلفوا فيها ، فقال قائلون : أرواح المؤمنين عند الله في الجنة، شهداء كانوا أم غير شهداء. إذاً لم يحبسهم عن الجنة كبيرةٌ ولا دين. وتلقاهم ربهم بالعفو عنهم والرحمة لهم ، وهذا مذهب أبي هريرة وعبد الله بن عمر رضي الله عنهم.

وقالت طائفة : هم بفناء الجنة على بابها، يأتيهم من روحها ونعيمها ورزقها.

وقالت طائفة أخرى: الأرواح على أفنية قبورها.

وقال مالك : بلغني أن الروح مرسلة تذهب حيث شاءت!!"

كان للحديث وقع الطمأنينة على قلب عمر. ظل يقرأ الكلمات مرات ومرات لعله يستطيع الوصول اليها .. هي الآن بأحد الأماكن الوارد ذكرها في الكتاب؛ ولكنها قالت له ذات مرة أن الأرواح لا تسكن القبور. ربما كانت تتحدث عن نفسها؛ وربما كانت الآن في الجنة .. أو في أي مكان شاءت .

ظل عمر يتابع عمله في الجريدة بنصف عقل حتى انتصف النهار فقام من مكتبه وبيده كتاب الروح. نظرة استفهام واندهاش تطل من عيون المحررين في الجريدة .. منذ متى يتنقل عمر برفقة كتاب؟ منذ متى يقرأ لابن القيم ؟؟

استقل سيارته هذه المرة. القيادة في ظهيرة يوم غير الأحد والجمعة تعد مغامرة في مجاهل القاهرة بطرقها المزدحمة .. لماذا تبدو الشمس اليوم خانقة، والنهار موجع والحياة كئيبة.

لا شئ ينبض في صدره سوى الانتظار والقلق والندم الذي يتسلل بخجل إلى صدره، حيث لم يكن هناك داعٍ لاتخاذ قرار الطلاق في هذا الوقت المتأخر من العمر.

أثناء شروده واستسلامه لعطلة السير الواقعة في منتصف الطريق، ظهرت الفتاة الشقية بفستان أبيض وخصلات مرتبة مزينة بالورود وبشرة نقية أكثر من كل مرة.

امسكت بيديها الكتاب الذي وضعه عمر على المقعد المجاور له. قلبت صفحاته، نظرت إليه وابتسمت ثم همست :

-" هل صدقت الآن ؟ "

-" صدقت ماذا ؟ "
-" أنني حرة أكثر منك "
-" أين كنتِ "
-" لن تفيدك إجابتي "
ارتبك عمر وهو يحاول الخروج من موجه الزحام التي تضرب المدينة في هذه الظهيرة الحارة، لكنها فاجأته باختطاف مباغت إلى تلك الساحة التي احتفلا فيها بعيد الميلاد، فارتفعت الموسيقى الصوفية ذاتها وتفجرت طاقة الحب مجددا في داخله.
هذه المرة لم تكن راقصة تدور على مسرح خياله ولكن أوقفته في ما يشبه قفص الاتهام ووجهت إليه أصابعها وهي تهتف بعنف :
-" لماذا طلقتها ؟ "
-" كي أصبحَ حراً "
-" هل ترى نفسك الآن حراً ؟ "
-" لا أدري "
كان الذعر واضحاً جلياً في عيني عمر وهو يقف صاغراً امامها ..
-" هل تعلم انها تحبك ؟ "
-" أعرف ولكن انا لم أحبها يوماً "
-" ولماذا صبرت طيلة خمسة عشر عاماً ؟ "
-" كيف عرفتِ ؟
-"أنا فقط من يوجه الاسئلة. أجب"
الحزم يتجلى في لهجتها لتشبع شعور الخوف بداخل صدره. لا يستطيع الآن فهمها. هل هي غاضبة منه أم أنها سعيدة وتخفي ذلك ؟!
-" لم تكن لدي الشجاعة لاتخاذ القرار "
-" ولكن .. حتى طلاقك الآن لم يتم وفقاً لاختيارك يا عمر بل تم إذعاناً منك لرغبتها هي. هي من سئمت العيش معك أيها الصامت الغامض فأمرتك بتطليقها وأنت نفذت الأمر فقط "
-"أعترض على طريقة الحوار هذه"

-"ومن أنت لتعترض ؟!"
-قال بصوت خافت ينبع من توسل وضعف شديدين.. " صبا ، ألم تحبيني ؟ "
-"هل تركت زوجتك من أجلي ؟؟ " .. دهشت وقد بدأ قناع الحزم ينقشع عن وجهها .
-"وسأترك العالم من أجلك "
-" كيف ! " .. ساورها خوف وصل لدرجة الرعب من قراره المفاجئ.
-" ليس لكل شئ كيف يا صبيتي " بابتسامة رضاً بالغة .
-" لا أظن أنك اتخذت القرار الصحيح "
-" و لا أظن أني سأخسر أكثر مما خسرت. لقد خسرت أحلامي وحب عمري وفرصتي الأخيرة في عيش حياة أحبها. عملت في المحاماة سنوات عديدة لم أكن سعيداً بها؛ ثم بليت بها لأكمل حياتي حتى بعد هروبي من مهنة المحاماة تلك، غير سعيد أيضاً. لقد تركت نفسي لكل العوامل الخارجية المؤثرة حتى فقدت هُويتي. هُويتي التي لا أجدها إلا برفقة الأوراق والكتب .. والآن اخترت البقاء معكِ ومع الكتب. لا أريد شيئا سوى بقائكِ معي "
-" هل اقتنعت بأني سأبقى معك إلى الأبد ؟ "
-قال بقلق عارم .. " أنتِ أخبرتني بذلك منذ التقينا للمرة الأولى "
-" هل تذكر المرة الأولى يا عمر ؟ " جاء صوتها حانياً ممتلئاً بالعطف والرقةِ.جلست على الأرض متربعة وهي تنظر إليه بهيام واضح وهو يسترخي شيئا فشيئاً أمامها. انقشعت ظلمة القسوة التي كانا بها منذ قليل. تنهد وهو يتربع أمامها والموسيقى تغسل خوف قلبه.
-"إنسان لا يستطيع نسيان زهرة جميلة قابلته في طريق من الطرق؛ ولا ينسى وجبة شهية تناولها في مكتب من مكاتب المحاماة في برلين مثلاً؛ ولا ينسى امرأة قبّلت جبينه في حفل مزدحم بالبشر في تمام الساعة الثانية صباحا. هل تريدين منه أن ينسى فتاة دفعت عمرها في سبيل لقاءه ولم تستطع؟ .. بربكِ كيف يكون إنسان إذا نسيها ؟ "
-" آآهٍ يا عمر ، ألهذا الحد ؟؟! "
-"أنا من يسال هذا السؤال ، والآن اخبريني ، هل ستبقين معي للأبد أم لا ؟ "
-" وما الأبد ؟ "
سألته السؤال الذي لمع أمامه وكشف عن لعنة علاقتهما. لقد تناول السؤال من قبل وفكر فيه وحار عقله ولم يجد إجابة. ها هي تلقي به مجدداً في هوة السؤال ذاته. ماكرة جداً هذه الفتاة. ماكرة حد التصديق وحد

الخوف والجهل .
-" هل تعرفين له تعريفاً ؟ "
-"أنا أسالك !ألست أكبر مني سناً وأكثر مني علما وخبرة؟ "
-" وهل الموتى ينتظرون العلم من الاحياء ؟ "
-" أرى بعينيك سعادة بكوني ميتة بالرغم من أن الأمر في غاية السوء "
-" أشعر أنكِ صرتِ واقعية بشكل مؤلم "
-" الواقع يا صديقي لا يعترف بي، ولكن اذكرك بحقيقتي "
-" هل يمكنني أن أطلب منكِ شيئا ؟ "
-" بكل تأكيد "
-" ناديني بكلمة ،، حبيبي ،، ". تبع عبارته بنظرة توسل وابتسامة خجل وغصة في حلقه بُعثت من قبر الوحدة الذي دَفَن فيه زوجته قبل يوم واحد ...
-" حبيبي ! " ضحكت ضحكة مائعة وهي تنظر إليه بتعجب شديد ثم اقتربت منه حتى ألصقت ركبتيها بركبتيه.
هذه المرة هناك شعور مختلف. تبدو حية تماماً. لم تسري بجسده القشعريرة المعتادة وإنما التصقت ركبتاه بركبتين حقيقيتين. مدت يديها لتلفهما حول عنقه جاذبة رأسه تجاه صدرها.

منذ وفاة أمه قبل هذه اللحظة بعام أو أكثر، لم يعانق أحداً بهذا الدفء ولم يشعر بالسكينة على كتف أحد مثلما يشعر الآن. بالرغم من أن هناك هاجساً خفياً ينبض بالخوف داخله إلا أن روحه تشعر الآن بالألفة والسعادة.
همست وهي تربت على كتفه وتعانقه بشدة :
-" أنت لا تعلم كم عشتُأنتظر هذا العناق؛ بل كنت أنتظر مجرد مصافحة أو نظرة فقط تتصافح فيها عيوننا"
-" أنا خاسر. اعظم خسارة شعرت بها هي خسارتك يا صبا "
-" صبا ، كم هو جميل اسمي عندما تنطقه !! "
تنهد وهو يلفظ الإسم من بين شفتيه حرفاً حرفاً بتؤدة "صـ بـ ـا ... إسمك يبعث على البهجة والدهشة معاً"

-" عمر ، كن بخير "

ليس من باب الصدفة أن يلتقي الإنسان بروح إسمها صبا وهو في ريعان الشيخوخة ! فضلاً عن أعوامها التسعة عشر التي قضتها في حضن كتبك وخواطرك.كما أنه ليس من الطبيعي أن ترى روحاً عالقة بك. الإنسان لا يلتقي بروح كل يوم؛ لذا وبناءاً على ما سبق ذكره، استمتع بالعشق إذا التقيت به أيا كانت هيئته ومتى كان موعده .. رحلت صبا عن الكون لتأتي إليّ وتترك في عالمي صباها؛ وربما جاءت لتعيد إلي صباي.

-" حدثيني عن الموت يا صبا .. دعيني أراه بعينيكِ "
-" الموت لا يُرى يا عمر كما أخبرتك سابقاً، الموت نشعره ولا نراه ، نكرهه ويحبنا، نريده ويمتنع عنا، يلاعبنا كما الأطفال .. وأنت تشبهه كثيراً.أنظر إلى انعكاسك بالمرآة أو إقرأ رواية من رواياتك ستراه "
-" لماذا مِتِّ "
-" لألتقي بك.ألا تعرف أن الله يدبر الأمر ولكل قَدَرٍ حكمة. قَدَرِي أن أُقتل في طريقي إلى امسيتك حتى تصعد إليك روحي "
-"ستبقين معي إلى الابد "
-" الابد كذبة اخترعناها،ولكن سأبقى معك .. حتى يدفنون جثتي ! "

خبراً موقظا أعاده من قمة السعادة ليسقطَ في قاع الحزن. متى يدفنون جثتك؟ ولماذا؟ وأين ستذهبين عندما يدفنونها؟!... غرق بالأسئلة و انهمرت دموع عينيه وهو يشعر بالتيه والقلق. مجَدَّداً عاد الخوف إلى صدره. لماذا لا تكتمل الاشياء في عالمه.

عودة الغائب

في الرواق المؤدي إلى غرفة العناية المركزة .. وقف عصام والحزن جاثم على صدره والهاتف على أذنه يتحدث إلى شخص ما. كانت بالداخل أمه التي فطر قلبها. لعنة الفراق موحشة ، والحيرة تزعج القلب الكسير. ترى هل ستفيق من سباتها ذات صباح أم أنها ستبقى ثابتة ذابلة على فراشها هكذا .!

عبر الهاتف القابع على إذن عصام ذهبت عباراته إلى الطرف الذي يحدثه.

- " لا أعلم متى ستقوم من غيبوبتها الطويلة هذه "
- .....
- " أنا خائف "
- .....
- " يقول الطبيب أن إصابتها بالغة ونسبة احتمال نجاتها معدومة "
- .....
- " لا أعلم السبب لكنها لم تفق منذ جئنا بها إلى هنا. يقولون إن قلبها في حالة خطرة. أنا خائف يا سمية "
- .....
- " أُدعِ لها قدر استطاعتك ... حسنا سأذهب للصلاة من أجلها "
- .....
- " وأنا أيضاً .. كوني بخير"

أغلق هاتفه ليضعه بجيبه. ما زال الخوف يحلق بالجو حوله والذكريات تهاجمه و ضجر يدب في نفسه. اتجه نحو دورات المياه ليتوضأ من أجل الصلاة.

هذه هي سمية. هي التي جاءت لعيد ميلاد أخته ذات ليل جميل من ليالي الشهر السعيد الذي ولدت فيه صبا. هي صديقة أخته وزميلتها في المدرسة .. وحبيبته منذ ذلك الحفل. كانا يلتقيان دائما عندما تنوي صبا الذهاب إلى الدرس أو استضافة مجموعة الفتيات اللاتي يحضرن الدرس ذاته.

سمية خمرية البشرة قصيرة لها شعرٌ اسودٌ ناعمٌ يشبه شعر صبا. عيناها بنيّتان تشبهان عينا عصام؛ ولها صوت ناعم يشعر المستمع إليها أنها طفلة في الرابعة من عمرها فقط .. وكان صوتها هو ما جذب عصام إليها في ليلة الحفل. انطلق قطار السخرية من بين شفتيه ليقف في محطته الأخيرة .. دموع سمية. شعور بالذنب جعله يكتب رسالة اعتذار ذات طابع طفولي ..

الآنسة الرقيقة/ سمية

صباح الخير .. أتمنى أن تكوني على ما يرام

الشمس اليوم رائعة، تنظر إلى الارض وتبتسم ابتسامة تشبه ابتسامتك ..أريد أن أخبرك أنني آسف جداً على ما بدر مني ليلة الأمس. سامحيني .. واقول لك سراً ... صوتكِ يشبه الجنة .. مع ودي واحترامي .

الآسف لكِ / عصام

استقبلت سمية رسالته عبر البريد البشري صبا بخجل وضجر ثم ارتسمت على ملامحها ابتسامة فرح مشوبة بحمرة الخجل .. ما أجمل الرسائل البريئة.

استمرت المراسلات طوال أعوام الدراسة مما أدى إلى قوة العلاقة بين عصام وأخته المطيعة التي تحمل رسائله إلى فتاته الجميلة .. بالرغم من أن أخته كانت دائماً ما تُسقِطُ عليه وابلاً من السخرية؛ كما كانت تحسن استغلال الموقف كلما أرادت منه شيئا، كثيراً ما تناولا المثلجات من البائع الذي يقف على الطريق أثناء ذهابهما إلى الدرس. وكثيراً ما كانت سمية تأتي لتناول المثلجات معهما؛ ودائماً ما كان حضورها مدبراً من قبل صبا ...

الذكريات تهاجمه فيجاهدها. صراع غير متكافئ الأطراف في صلاة لا يدري عصام إن كانت مقبولة أم لا. صلاة تخللتها دموعه وابتساماته وتفاصيل حبه لسمية الذي تسببت فيه صبا بقصد و بدون قصد؛ حتى جاءت اللحظة التي قررت فيها صبا أن تربط بين أخيها وصديقتها المقربة برباط مقدس. ذهبت لأمها لتعترف لها بأنها شاركت في بناء قصة حب بين أخيها وصديقتها. بالطبع لم تكن العاقبة محمودة فقد أخذت نصيباً من التوبيخ والغضب ولكن في النهاية، و بعد هدوء العاصفة ، ذهبت برفقة أمها وأخيها إلى منزل سمية وتمت الخِطبة في حضور الأهل والأقارب.

انتهت الصلاة و معها فصل الذكريات الأليم. لم عصام يتذكر صبيته إلا وتذكر لها موقفاً بطولياً لن يجد مثله من غيرها.

كان هناك شخص يقف وراءه وهو يختم صلاته. ذلك الغائب الحاضر و الحاضر الغائب؛ برغم إنعزاله و بالرغم من أن أحداً لن يستطيع القيام بدوره إلا أنه دائم الغياب. يحب السفر و يعشق الفتيات اللاتي يقفن له على الطرقات ملوحات. ينقل البضائع؛ فيذهب برفقة الصحبة و يعود برفقتهم. شيمته الضحك؛ وقد ورثتها عنه صبا. تعوّد السخرية من الجميع. قديماً كان يسخر من جيرانه، وبالأخص تلك الجارة التي تنشر ملابسها عند كل فجر على قارعة الطريق. كان يسخر من اختيارها لوقت الغسيل كما يسخر من ملابسها شبه المهترئة. دائم الضجر لا يعجبه شيءٌ؛ قاسي القلب أحياناً.
لا شيء فيه يحمد سوى ذريته التي ملأت البيت حول زوجته الأم العجوز. و الآن و بكل هذا الجبروت وقف أمام ابنه غاضباً منكسراً. مشاعر متباعدة تجيش في صدره فتطل من عينيه. دموع تأبى الخضوع إلى حزن القلب الكسيرِ فتعتصم بداخل جفنيه.

أبٌ بهيئة سائقي الشاحنات. قامة طويلة؛ وجه احرقته الشمس؛ عينان غائرتان من كثرة السهر و شفتان غليظتان غلبت عليهما زرقة التدخين. شعره قصير ناعم. له لحية خشنة وشارب متهدل. يرتدي بنطالاً من الجينز وفانلة بخطوط عريضة. هيئتُهُ وهو عائد من العمل صورةٌ لا يحب عصام رؤيتها. يفضل دائماً أن ينتظره حتى يستحم ويرتدي جلباباً واسعاً ويأتي إليه بوجهٍ أطفأت المياه الباردة نيران وعثائه و عطرت رائحة الصابون بذوق زوجته محياه.

كان اللقاء المالح المنغمس في الدموع قصيراً جداً. نظرتان ممتلئتان باللوم كل من طرفه يلقي باللوم على الآخر. الأب غاضب لأن أحداً لم يخبره بما وقع لصغيرته الحسناء، تلك التي فاضلها جمالُها على أخيها في قلب أبيهما. و على غير العادة أحبها ولم يفضل عليها الذكر كما تفعل الغالبية العظمى من الرجال. ذلك لأنها ورثت عن أمها جمالاً أوروبياً يعود بأصله إلى جدتها الأنجليزية و جدها المصري.

كان زواجه مستحيلاً؛ حيث لم يكن من المقبول أن يتزوج رجلٌ صعيديٌ بابنة إنجليزية. إلا أنه تزوجها و أنجب منها طفلة تشبهها. و اليوم تنهار قلعة عشقه للجمال و يتبخر ما عاش سعيداُ من أجل اقتنائه. اليوم تتبخر الزهرة النادرة التي تسكن تربته.

تموت نبتة الحُسن التي ستغير مجرى حياة النسل الصاعد كله. ألمٌ يفوق كل تصورات البشر. ألمٌ يملأ صدره فينفخه الأبُ المكلومُ في سيجارة محترقةٍ حزينةٍ على ما أصاب العائلة المسكينة من فاجعة.

أما النظرة الأخرى فهي لشاب مرّت عليه ساعات من أسوأ الساعات التي قد يشاهدها خلال القادم من عمره. خطيبته سمية تحدثه كل حين لتطمئن على صديقتها. خطيبته التي وضعت ساقها في جبيرة منذ أيام قليلة .. يتذكر عصام هذه الجبيرة. لقد ساعدت صبا الطبيب وهو يجري عملية التجبير لصديقتها. كتبت بقلمها الأحمر كلمة على الجبس الأبيض فور جفافه. كتبت تقول "أتمنى أن يطول بنا العمر و يشيب شعرك أمام عيني فيصبح أبيضاً كهذا الجبس فأحضر زهرات من حديقة منزلنا الكبير أضعها بين بياض شعرك يا صديقتي" ؛ ثم رسمت زهرات حمراء حول أمنيتها الرائعة. ها هي تسقط قبل أن تسقط جبيرة صديقتها. وبالرغم من ذلك فالأب دائم الغياب كعادته لم يكن حاضراً. يشعر عصام بالتيه حيال الأمر. خائفٌ، ترتعدُ روحُه من هول الموقف.

لم يكن الصمت الذي غلف وقفتهما صمتاً حزيناً فحسب بل كان صمتاً ثائراً غاضباً. اتجها معاً بلا مصافحة نحو المبنى الذي ترقد في إحدى طوابقه جثة صبا ، تحدث عصام :

- " الاطباء يقولون أن عودتها للحياة مستحيلة "
- " ماتت ؟؟؟" قالها بفزع كبير .
- التفت لتند عنه نظرة حقد وغضب مموم ثم قال " لا فالقلب ما زال يعمل وإن شاء الله تعود إلى الحياة. يقولون فقط أن حالتها حرجة "
- " سأفعل المستحيل كي تعود. سأرسلها إلى الخارج كي تشفى "
- " هذا إن كنت تملك وقتاً لتفعل "
- " يا بني لا تكن ظالماً معي "

- " لست ظالماً و لكنك تأبى أن تعترف بتقصيرك في حقنا "

رد الأب بحزم هذه المرة و بصوت خفيض يريد أن يرتفع ليصبح صياحاً قال:
- " هل تعتقد أن الوقت والمكان يسمحان بإقامة المحاكمة النبيلة تلك ؟ "
- " حسنا، لنا وقت يا أبي "

دخل الرجلان إلى المشفى والألم يسبقهما والخوف يقف في ظهرهما. نظرا معا إلى الجثة المسجاة على السرير والأسلاك والانابيب تحيط بها .

إشراق

على الطريق تومض الحقائق كالبرق في السماء .. فقط لمن ينتبه.
في الغرفة الشاهدة على تاريخ علاقته الزوجية الصامتة كان عمر مستلقياً يغط في سبات عميق بينما جلست بجواره صبيته الحلوة. يراودها شعور خفي بالسعادة، لكونها تجلس بجواره في موضع الزوجة التي تستمتع بتأمل ملامح زوجها النائم. تنهدت وهي تتمنى العودة إلى الحياة ولو لساعة واحدة، شرط أن تقضيها بجواره كما هي الآن .. فجأة قطع صوت الرنين المنبعث من الهاتف عليها لذة الحلم الذي راحت تموج فيه مستيقظةً.

رنين مزعج ينبعث من الهاتف بجوار رأسه وهو يتقلب مرتدياً بيجامته المقلمة التي يحبها كالعادة، يبدو متعرقاً ينام نوم المرهق المتعب. تبدو على وجهه علامات انشراح. إنه حتماً يشاهد حلماً جميلاً، لكن الرنين ما زال مُصِرّاً على إيقاظه. فتح عينيه كمن انتزعوه من وطنه. فزعاً نظر نحو الهاتف وفي عينيه عبارة " تبا لك !!" ثم التفت للجهة المقابلة ليبتسم قائلاً

- " صباح الخير يا آنستي "
- " صباح الخير يا عزيزي "

عاد إلى وضعه نائماً ثم مد يده ليتناول سماعة الهاتف وقال غاضباً :

- " مرحبا "
- .....
- " صباح الخير " لم يبد من نبرة صوته أي ارتياح وهو يلقي تحية الصباح على المتكلم ..
- " انا بخير ... وانتِ ؟ "
- .....
- " لا لن أفطر. كم الساعة الآن ؟ "
- .....
- " حسنا سأنزل بعد ساعة تقريبا. هل تريدين شيئا ؟ "

- .....
- " حسنا ، إلى اللقاء "

وضع السماعة والتف إلى من جلست تتأمله وهو يتحدث. الفضول يطل من عينيها. ببرود ابتسم لها وفي عقله صراع لا يبدو أنه سينتهي. قام إلى الحمام ليغتسل من أثار النوم التي علقت على ملامحه وهو يفكر فيما يحدث. تحت الماء أخذ صوت زوجته السابقة ينبعث إلى إذنيه. تتردد عباراتها التي قالتها للتو " انتبه لنفسك ، تناول إفطارك ، ستجد الجريدة في الشرفة ، قمصانك في الدلفة الوسطى من الدولاب ، أعواد الثقاب في الدرج الأول من أدراج المطبخ، انتبه لنفسك ولا تحرق اصابعك"
اكتشف لتوّه أن زوجته تعامله كما تعامل الأطفال. لا تظن أنه يستطيع الاعتماد على نفسه. نظرتها له أشعرته تجاهها بالاستياء الشديد. قرر مغادرة الحمام ليذهب إلى العمل وقد عزم على ألا يتناول طعام الإفطار كما أخبرها. لن يرتدي قميص اليوم سيذهب إلى عمله بأي قميص آخر. لن يقرأ الجريدة الحمقاء.
و لتذهب رعايتك إلى الجحيم سيدتي .

قاطعته الموسيقى المنبعثة من الخارج. موسيقاه المعتادة التي باتت تجلب إلى نفسه الطمأنينة. ارتدى ملابسه وخرج إلى الشرفة ليجد مائدة صغيرة مستديرة وضعت عليها أطباق الإفطار والجريدة و باقة ورود بيضاء في غاية الجمال والرقة. وعلى المقعد المقابل تجلس صبا بفستانها الحريري الأبيض وشعرها المصفف و وجهها الصبوح. تنظر إليه وتبتسم قليلاً. التفت إلى الداخل فوجد بزته المفضلة بلونها الكحلي ورابطة العنق الأنيقة التي يحبها و قميصاً معطراً وجوربين ليرتدي أيهما شاء. هتف وهو يضحك متعجباً:

- " يبدو أنكِ زوجةٌ رائعة "
- "كزوجتك ؟ "
- " لم تعد زوجتي "
- " لكنها كانت تفعل أكثر من ذلك، بل وحرصت أيضا على أن توفرَ لك نفس المستوى من السعادة بأن تنازلت عن كرامتها واتصلت بك لتساعدك "
- " لماذا أشعر أنكِ متحيزة لها ؟ "

- " لأنها تحبك و أنت تكرهها "
- " أنا لا أكرهها يا صبا ، ولكن ... لم أستطع يوماً أن أشعر بالحب تجاهها. أنظري ..، كانت تخبرني للتو بأن أعواد الثقاب في درج المطبخ. من المؤكد أنك وجدتيها بدون بحث طويل. هل أنا طفل لكي تعاملني هكذا ؟ "

- كان عمر يتلعثم أثناء حديثه عن زوجته؛ بينما تنظر إليه صبا بثبات يربكه أكثر فأكثر. لم يستطع حتى هذه اللحظة فهم ما تشير إليه نظراتها. حزنها يجثم على صدره. غرابة أطوارها تثير غضبه. هتف و قد ضاق بها ذرعاً :

- " لماذا تنظرين الي هكذا ؟ "
- " أحب تأمل انفعالات وجهك وأنت منهمكٌ في الدفاع عن نفسك أو عن قضيةٍ اقتنعت بها "
- " هل أبدو مختلفا ؟ "
- " تبدو شهيا "

ضحك رغما عنه ..

- " شهيا !! "
- " هل سألت نفسك يوماً لماذا أحببتك ؟ "
- " سألتُكِ أنتِ وقلت أن الحبّ لن يكون حباً اذا ما وجدنا له سبباً "
- " اعتبر تجربتك رواية واختر لي سبباً مقنعاً لكونك بطل هذه الرواية "
- " آآآ ، أظن أن كل انسان منا هو بطل روايته وكونك ظهرتِ لي وحدي فذلك يجعلني بطل الرواية. وكونك جئت من منزلك إلى أمسيتي سواء كان حضورك بالروح أو بالجسد فذلك سببٌ آخر لأكون البطل. وجودكِ الآن على طاولة الطعام الصغيرة هذه و الشرفة التي تطل على طريق خاوٍ من البشر، هو في حد ذاته برهان على أنني بطل الرواية "
- " وأنت .. ماذا فعلت ؟ "
- ماذا تقصدين ؟ "

- " ألا يجب أن تكون لك رسالة ؟ "
- " رسالتي هي الحب "
- " ذلك الذي وقفت على بابه خائفاً ولم تدخل ؟ "
- " صبا .. لماذا تحدثينني بهذه اللهجة "
- " أي لهجة !!؟ هل غضبت من مواجهتي لك ؟ "
- " لا، بل غضبت من نظرة الاحتقار التي بدت واضحة جداً في الفترة الاخيرة "
- " منذ تركت زوجتك يا عمر و أنا أحتقرك "

فزع من تصريحها الأجرأ منذ التقى بها. أراد أن يصفعها صفعة ترد له اعتباره. لكن يده مرت من خلالها وكأنها فقاعة هواء تنفجر فور لمسها ولا نشعر بها. تلاشت تماماً من أمامه ففزع لذلك أيضاً وأخذ يلتفت يميناً ويساراً وهو في قمة الغضب. اخيراً وعندما لم يجدها، أمسك بفنجان شايه الذي كاد أن يبرد، إرتشف منه رشفه وهو مغتاظ بشدة ثم قضم قطعة خبز و بدأ في تناول إفطاره الذي أعدته قبل أن تهرب كعادتها.

خلال طريقه إلى الجريدة كانت تقف برفقة الزهور. تتمايل بينهم؛ تفوح عطرا مثلهم؛ تنظر إليه بحقد كعادة الزهور عندما ترمقه وهو العجوز الذي يفوق عمره عمر أجيال كاملة من الزهور. غضباً التفت إلى الجهة الأخرى وهو يسير على قدميه. لن يستقل سيارته اليوم، بل أنه على وجه التحديد لا يذكر أين تركها بالأمس. جاءت لتسير بجانبه. التفت ليجدها بكامل أناقتها تسير بجانبه ممسكةً بذراعه، مرتدية فستاناً أسوداً من نصفه الأسفل وحتى أسفل صدرها. أما بقية الفستان فكانت خضراء كأوراق الشجر. على رأسها حجابٌ اسودٌ وضعته ليُظهر ما قد تغفل عنه عين من جمال وجهها ونضارته وصفاء بشرته .. كادت تنبعث من حنجرته شهقة خائفة. لكنها ربتت على ذراعه وهي تتأبطه مبتسمة وهمست:

- " لا تسأل كيف مرة أخرى. ولا تخف.. لا يراني أحد سواك. لا أحد يرى الأرواح يا صديقي سوى من تريد الأرواح الظهور أمامه "
- " ولماذا لا تظهرين نفسك؟! أنتِ رائعة الجمال "

قالت باسمة:

- " اشكرك يا صديقي "
- " إلى أين يا آنستي ؟ "
- "كيف توقعت أني أريدك في مشوار خاص ؟ "
- " ملابسك التي لا تدل إلا على خطة معينة ! مكان محدد ! إلى أين ؟ "
- " سنذهب إلى أمي"

خفق قلبه رغما عنه وانقبض وتقلصت ملامح وجهه. لكنه بالرغم من مشاعره الخائفة والقلقة سَعِدَ بقرارها فهتف:

- " رائع ، كنت أنوى طلب ذلك "
سألت وهي تعرف يقيناً أنه يكذب
- " فعلا ؟! "
- "حقاً يا صغيرتي "
- "حسناً، إلى هناك "
- " الآن ؟ "
- " نعم الآن، ولكن لنعد إلى المنزل اولاً "
- " لماذا ؟ "
- " هيا كي لا نتأخر "

عادا إلى المنزل وهي تدفعه أمامها دفعاً وهو يزمجر ويصرخ فيها لكي يعرف سبب إصرارها على العودة.
هل نسي مفاتيح السيارة ؟! هل ترك الباب مفتوحا ؟! هل أنبوبة الغاز غير مقفلة ؟! هل غرق المنزل ؟! .. لا شئ من ذلك كله ..

- " اذهب وتوضأ ! "
- " اتوضأ ؟! "
- " نعم"

كانت جادة جدا في طلبها. ولم يكن ليرفض لها طلباً كهذا، رغم من أنه لم يك يوماً من المصلين. كثيراً ما حاول الالتزام بالصلاة ولكن محاولاته باءت بالفشل. و دائما ما كان يشعر بالملل وعدم القبول. تركها وهي تقف أمام المرآة تنظر إلى وجهها الذي بدا له حينها نبعاً صافياً يفيض من الجنة .. تذكر كلمات ابن القيم و هو يغسل وجهه وقد تبللت ملابسه .. بعض الأرواح المؤمنة تسكن فناء الجنة.

هل تريده صبا معها في الجنة ؟ لمع السؤال في ذهنه و أدخل السرور إلى قلبه فانتهى من وضوئه و هو مقبل على الصلاة برغبة كبيرة في أن يُكتب من أهل الجنة .. نظر إلى الساعة؛ إنها العاشرة. هل ينتظره الله الآن لكي يصلي ركعتي الصبح ؟

هل ما زال البابُ مفتوحاً ؟ شعر بصغر شديد يصيبه. رأى أنه بحجم عقلة الإصبع و تخيل أنه يقف أمام الله وحده بين السموات والأرض .. فزع من هول المنظر.

دخل عمر إلى الصلاة وهو غارق في دهشة لم تصب قلبه منذ زمن بعيد. ذكرته قراءة الفاتحة بسنواته السبع الأولى، وطريقه إلى الكتّاب، وصوت شيخه الكفيف، وهمس أمه في أذنه وهي تعلمه كيف يقرأ الفاتحة في الصلاة. علمته أن الله يقتسم الصلاة بينه وبين عبده .. يحاوره فيها ويشهد الملائكة في ختام السورة بأنه غفر لعبده كما طلب.

علمته أن الصلاة صلة وأن الله ينتظر العبد كل يوم في المسجد ويناديه خمس مرات. علمته الكثير عن الصلاة حتى تزرع في قلبه تعلقاً بصلاته. لكنه نسي و لم يجد له عزماً. نسي ما علمته له أمه فبات وحيداً مقطوع الصلة بالله.

انتهت صلاته التي لا يعلم هل قبلت ام لم تقبل. صلاة مفاجئة ولم تنبع من عمق قلبه، كيف تُقبل؟؟ ترى لماذا يأمرنا الله بالصلاة خمس مرات في اليوم و الليلة؟ ... هل يحتاج الإنسان لهذه الطهارة المستمرة ؟

هل نرتكب من الخطايا ما يحتاج لكل هذا الكم من التطهير؟ أم أن الصلاة في الأصل شكر على كل ما رزقنا به الله من نعم ؟؟

و كعادة عمر، تُنبِت شجرةُ حيرتِهِ دائماً العديدَ من الأسئلة؛ فيتوه في الشجرة التي سريعاً ما تتحول إلى غابة و من ثم يصيبه النعاس فيفقد وعيه وتتبخرُ أسئلتُهُ. لكن هذه المرة لم يفقد وعيه وإنما جذبته صبا من يده وهي تمسك بمفاتيح سيارته. اتجها معا نحو المشفى .. نظر إليها بعينين يملأهما امتنان وحب واحترام ثم سألها أثناء تشغيل السيارة وهي تجلس بجانبه فَرِحَةً كالأطفال ..

- " هل كنتِ تصلين يا صبا ؟ "
- " نعم " ببساطة متناهية أرسلت إجابتها وهي تنظر إلى وجهه المكسو بالفخر بها.
- " منذ متى؟ .. ومن علمك الصلاة ؟ "
- " منذ ذلك الثلاثاء الذي حدثتك عنه. قالت لى خالتي إنني أصبحت الآن امرأة و سأسأل عن صلاتي وصيامي وأنه أصبح لي ملكان يكتبان عملي وسأجازى بالثواب أو العقاب. بالطبع كان يجب عليَّ المواظبةُ على الصلاة منذ أن كان عمري سبعة أعوام أو لنقل عشرة. لكنني كنت أتثاقل فيها ولا أحبها؛ حتى بلغت. وحينها لم يكن لدي اختيار آخر "
- " تصلين فقط لخوفكِ من العقاب ؟ " وجه عمر سؤاله المهين إلى صبيته و لكنه في الحقيقة كان ينهر نفسه ويلومها و يهمس لذاته همس له معني. ساوره شعور بالخجل والخوف من أن تكون صبا قد شعرت بخجله هذا.
- " الخوف من العقاب عبادة؛ والطمع في الثواب عبادة؛ والعبادة الأكثر قيمة في نظري هي عبادة الحب، حيث لا يغويك ثواب ولا تمنعك عن المعصية قسوة العقوبة و إنما يمنعك خجلك من صانعك وحبك له. تماماً كالأحبة من أهل الارض".

الطريق ممتع برفقتها وهي تتحدث متهللة الوجه. شعر لوهلة وهي تحدثه أنه برفقة ملك كريم تنزل من السماء. حديثها عن الله يأتي من عمق بعيد؛ له رنين ينبعث بداخل العقل و دفء يسري إلى الروح مباشرة.

- " أشعر بالسعادة عندما أسمعك يا صبا "
- " وأنا أحب محادثتك .. أنت رجل رائع "
- رد متعجباً .. "كنتِ تحتقرينني منذ ساعة واحدة "

- " نعم، ولكنك الآن على طهارة وقد وقفت أمام الله بعد سنوات الهجر. سأحبك حتى تصعد روحي إلى الله فيسالني ماذا أريد من النعيم في الجنة وسأطلبك أنت".
- " حقاً ؟ " .. سريعاً انفرجت أساريره وتجمدت أنامله وأتسعت ابتسامته. بهجةٌ مباغتةٌ تحاصر قلبه وتراقص وجدانه و ترتفع به علياً. لقد كان يخشى لتوه أن تكتشف صبا هذه الحقيقة المخجلة إلا أنها اكتشفتها فعلاً وتعاملت معها برقتها المعتادة.
- " انعطِفْ يميناً ... لقد وصلنا يا صديقي "
- " حسنا " ...

نذير الشؤم

لم يكن للبكاء قبل هذه الفترة العصيبة علاقة بأهل هذه الغرفة المضاءة بالنور الأبيض، الملتفين حول جسد نحيل أخذ في التلاشي يوماً بعد يوم .. لم يكن هناك مكان للحزن فيما بينهم. عيون ستة علقت على جسد صغير غادرته الحياة بغدرها. عيون ستة اكتحلت اليوم بخبر كالرماد فعميت من قسوة ما سمعوا.

جاء الطبيب إلى الأب الذي بقي مندهشاً وكأنه لا يصدق أن فتاته التي تركها قبل أيام ترقد الآن على فراش الموت مستسلمة. حدّثَه بحديث لم يستطع فهمه، لكن النهاية التي وضعها الطبيب حجراً على صدر الأب كانت تقول بأنهم سينتظرون توقف القلب حتى يستطيعوا استخراج تصريح دفن وشهادة وفاة. مصطلحات قاسية ظالمة عندما تقترن باسم صبا وبعمرها وبحكاياتها الصغيرة ولعبها وغرفتها ومكتبتها وعيونها الزرقاء وأغنيتها ورقصها وحضنها الأخير الذي ودعته به ولم يكن مجرد وداع مؤقت بل اتضح أنه وداع أخير. إعتاد أن تصافحه سراً قبالة باب الشقة و اعتادت هي أن تلقي إليه بوردة حمراء من الشرفة بعد نزوله. مراتٍ كان يتلقفها ومراتٍ أخرى كان يُفلتها فتسقط بين قدميه ليدهسها ثم ينظر إلى أعلى مبتسماً. كثيراً ما سرقت منه كوب شاي نام عنه أو جريدة أخذها من زميل له فاخذتها هي خلسة. علاقة أبوة وبنوة لا مثيل لها.

وسط غيوم حزنهم ومحاولاتهم الصمودَ أمام العاصفة التي تقتلع جذور الفتاة من بينهم، برز عمر من باب الغرفة و برفقته صبا. على استحياء تسلل إلى الغرفة وألقى سلاماً. الأم ثكلى تستند إلى الحائط وقد انقطع دمعها لتبكي روحها دماً. الأب شاردٌ ذاهلٌ لا يقوى على استقبال ضيف بعد ضيفه الأخير. وحده الإبن انخرط بعيداً عن لوحة الحزن محتفظا بحزنه الخاص على وجهه. برحابه مد يده وصافح عمر بحرارة غير متوقعة.

همس عمر بتردد:

- " عمر حسن ، الكاتب الـ.."
- قاطعه عصام .. " عمر المصري !! غني عن التعريف يا سيدي. أختي الصغيرة كانت تحبك كثيراً " ثم أجهش بالبكاء و استكمل قائلاً " أنا عصام "

- " تشرفت بك يا عصام ، لقد عرفت بوفاة أختك .." هنا جذبته صبا من ذراعه لتنبهه أنهم ما زالوا يعتقدون أنها حية وستعود من رقدتها الطويلة .. " آآ ، عفوا أقصد حادثة أختك .. و قد جئت لأطمئن عليها "
- " جزاك الله خيراً يا سيدي ، هذا والدي ... معذرة فالموقف أقوى منه"
- " لا بأس ، أُقدّر حالته " .. غُصة في قلبه تؤلمه وتثير شجونه الاولى.

تركته صبا وراحت تدور حول السرير الذي يحتوي جسدها. في بداية الأمر لمعت في عينيها نظرة شوق والتفتت تقول له:

- " انظر يا عمر !! .. كنت جميلة جداً "

بعد ذلك انطفأ الشوق في عينيها وهي تنظر إلى الوجه الشاحب والعينين اللتين أحاطت بهما زُرْقة الكدمات، والجروح التي شوهت فمها الصغير. حالة جسدها تثير شديد حزنها. التفتت إلى أمها و هي تعتدل خجلاً من عمر. سريعاً ذهبت إليها و حاولت احتضانها؛ و بالطبع لم تكن أمها تراها أو تسمعها و قد كان الشوق يفتك بقلبها الصغير.

وقفت الأم أمام عمر الذي يتأمل المنظر بقلب يكاد ينفطر و دموع تذرف رغماً عنه. يتأمل نظرات صبا وشوقها إلى حضن امها و هي تهمس بصوت مزقه البكاء.

- " لا أتصور أن طفلتي البريئة الحنونة ستغيب عن عمري. كيف؟ ولماذا؟ "
- " ستعود ابنتك إن شاء الله يا سيدتي. روحها تسمعك الآن وتشعر بك وبالتأكيد هي أيضا تتعذب لفراقك "

اومأت إليه صبا بعينيها الحزينتين وهي تضم أمها إلى صدرها رغماً عنها. تمنت لو أن أمها شعرت بدفء ذلك الحضن. وقعت كلمات الاسرة الجريحة على أذني عمر كالرصاص. وجعٌ ينتشر كالدخان في أفراد العائلة التي كانت من اسعد عائلات البناية الثامنة في الحي الذي لا يستحق ذكر اسمه. الفقر لم يكن يوماً فقر مال. إنما الفقر فقر السعادة.

و بهذا القياس اكتشف عمر أنه أفقر الفقراء؛ رغم أنه كان قد لقب ذات عام في احتفال، قبلته فيه امرأة في منتصف العمر، بأنه صانع البهجة. تلك المرأة الانجليزية التي حضرت من بلدها إلى مصر لكي تلتقي به و تصافحه. ترى هل هناك على هذه الارض من يعشقه كما تعشقه صبا ؟ .. باغته ردها بالرغم من أنها تركته يتأمل المشهد المبكي وأخذت تشبع شغفها بالتقرب من أخيها وأبيها وأمها وهم لا يشعرون .. قاطعت تفكيره وانتزعت نفسها من غمرة الشوق وقالت بعنف:

- " لا .. لن تجد على هذه الارض من يعشقك كما عشقتك ".

ضحك رغماً عن بكاء روحه و حزنه عليها و قال: " طبعاً يا صبيتي الحلوة .. و أنا لا أريد غيرك من هذه الحياة .. "

اقتربت من أخيها الذي وقف يتصبب عرقاً من شدة حرجه أمام الرجل الغريب. قبلت وجهه و استندت بكفيها الصغيرتين على كتفه ثم نظرت إلى عمر و قالت:

- " هل تعرف كم يحب سمية ؟ بالمناسبة، سمية هي صديقتي الوحيدة. للأسف كسرت ساقها أيام قليلة و هي الآن حبيسة الجبس. هل تعرف أن زفافهما كان مفترضاً بعد شهرين من الآن ؟ .. بكل أسف سيضطران إلى تأجيل الزفاف لعام إضافي بعد رحيلي ".

الدموع تذرف رغماً عنه. إنها المرة الأولى التي يفقد فيها السيطرة على نفسه. غادر الغرفة مهرولاً نحو الطبيب وصبا تلحقه بفستانها الوقور وصوتها البعيد. تحدث مع طبيبها قليلا وقد بدت ملامح الطبيب آسفةً أمام توسلات عمر ورجائه.

سألت الأم ولدها عن ذلك الرجل الذي جاء ليطمئن على صغيرتها. هل هو معلمها أم هو الطبيب الذي تابعت معه حشو ضرسيها أم أنه الرجل الذي تشتري منه الكتب. ترى أيكون هو مدير المشفى ؟ .. " من يكون بربك يا عصام؟

- " هذا هو الاستاذ عمر المصري؛ الكاتب الذي ذهبنا الي أمسيته في تلك الليلة المشؤومة ولكننا لم نصل إلى هناك و قد سبقنا القدر "

بغيظ شديد صاحت الأم وقامت مندفعة نحو باب الغرفة، لكن عصام أمسك رسغيها وأخذ يهدئها.

- " نذير الشؤم وكاتب الندامة ، بأي قلب جاء إلى هنا ؟ ، هل يريد رؤية ضحيته ؟ .. كاتب الموت والهم والعفن. لا بارك الله فيه و لا اراح الله له قلباً. الا لعنة الله عليه بحق الحرقة التي تؤلم قلبي و بحق المسكينة التي تصارع الموت بين يدي رب عزيز".
- " على رسلك يا أمي . الرجل لم يخطئ . هو فقط جاء ليطمئن على قارئة له من باب الإنسانية .. لا ذنب له صدقيني ".
- " اصدقك ؟ ، اسكت يا غبي. اقطع ذراعي إن لم يكن هو سبب النكبة التي حلت باختك ".
- " يا أمي هو لا يعرف أختي بالاصل ، فكيف يكون سببها " سكت عصام قليلا ثم طأطأ رأسه وهو يتساءل "حقا كيف عرف بالامر وكيف جاء إلى هنا ؟ "

استرق عمرٌ السمعَ ولم يعقب على حديثها بل سحب قدميه واتجه إلى الخارج؛ بينما كانت صبا ترمقه بحزن وترمق أمها بنظرة تود لو أنها تراها أو تسمعها كي تؤكد لها أن عمرَ لا يد له فيما أصابها. إنها تقف عاجزة وهي تشاهد جرحه وإهانته من أمها التي تاقت إلى حضنها ولم تستطع بعد التعود على فراقها.

وقفت تتأملهم جميعاً وهم ينظرون إلى بعضهم البعض. هدأت الأم من ثورتها فقال عصام عبارته الأخيرة "استعيذي بالله من الشيطان يا أمي. الرجل لم يفعل شيئا " ثم شرد في فكرة تحيره؛ لربما كان انتشار الخبر في الحي هو السبب الذي جاء به إلى هنا ؟ ربما حضر أحد قرائه الحادثة فذهب وأبلغه؟ أو ربما كانت صبا على علاقة به دون علمنا ؟

وقفت صبا أمامه مباشرة وهو يمسك ذقنه بيده و ينظر حائراً في اللاشئ. أرادت أن توقفه عن هذه الحيرة وتهمس بعبارة واحدة " أنا التي دللته على طريق المشفى" .. لكنه لن يسمعها مهما حاولت !! .. جاهدت في أن توصل إليه فكرتها؛ تشير إليه، تكلمه، ترفع صوتها و هي تعلم أن الأمر لا جدوى منه بكل السبل. الحيرة والحزن يملآن وجهها بينما هو غارق في ظنونه. رنين منبعث من جيبه أنقذها من فرط ظنونه واحتمالاته التي تسوء كلما مضى عليها الوقت. إنها سمية؛ تتصل لتطمئن عليها. تسأله هل جد جديد ؟ هل ستغادر ؟ هل

وجدوا طريقاً لخلاصها ؟ .. خرجت إجابات عصام كلها موصدة لا تحمل أي نزعة أمل واحدة. انتهت المحادثة ليجلس القرفصاء بجوار أمه معانقاً بكفيه رأسه المحموم .

جولة إضافية من لعبة عيد الميلاد.

إذا كنت فاعلاً فافعل الخير و لاشيء غيره.

و في مأساة جديدة، كعادته جلس عمر في سيارته التي شهدت جميع تقلبات حياته بحلوها ومرها. شهدت مآسيه الروائية وليالية الحائرة، و شجارات محتدمة كثيرة بينه وبين زوجته، و احتفاله بجائزة الأدب، و سعادته بفرصة السفر المتأخرة، و همومه قبل كل أمسية يستعد لحضورها، وغضبه عندما يفتح الجريدة ليجد خبراً مزعجاً. سيارة احتوت مواقفه و ذكرياته فأخلصت له كما أخلص لها. جلس حزيناً تلتف حول عنقه أغلال من الشعور بالذنب. أغلال أُحكمت تماماً حول عنقه. وفي محاولة يائسة للهرب من الاختناق بذلك الذنب مد يده إلى ربطة عنقه الأنيقة وأخذ يحركها يميناً ويساراً ليفكّها لعله يوسع ذلك القيد الخفي الذي كاد يزهق روحه.

برزت بجواره صبيته الصغيرة وعلى وجهها سكينة زائفة وفي عينيها دموع جعلته يشعر و كأن الكون قد ضاق عليه بما رحُب. لقد قُتلت صبيته المفعمة بالحياة من أجله. قُتلت وهو كالبئر الجافة لا يفعل في الحياة شيئاً سوى الكتابة والثرثرة والمزيد من الثرثرة.
التفتت اليه وقد انسلخت من حزنها كما تخرج الفراشة من شرنقتها المغلقة لتبدو أكثر جمالاً وتألقاً. بدت بجواره مبهجة كالربيع. بل إذا كان للربيع روح ستكون روح صبا، وإذا كانت الحياة جميلة فذلك لأنها صبا.
همست وهي ترمقه بعينين يملؤهما الحب:

- " هل سنقف هنا كثيراً ؟ "
- " إلى أين يا آنستي ؟ "
- " إلى النجوم ! " .. نطقتها ساخرة وهي تغمز بعينها وتنظر إليه نظرة ذات معني، فانفجر ضاحكا معها لتعلو ضحكاتهم وتتعانق مرحة في كبد السماء. وفجأة خف ضياء الضحك بدمعة تلألأت من عينه فنظر إليها متنهداً و قال :
- " هل يعجبك تايتنك إذن ؟ "
- " بكل تأكيد ، أسطورة حب لا مثيل لها "

- " لكنكِ أجمل من البطلة "
- " الجمال يا صديقي ميزان مختلف، ولعلك تهمس بذلك فقط لكي تجاملني"
- " حبيبتي ، أنا لا أقصد جمال الهيئة، ولو أنك تفوقت عليها في هذه أيضاً .. " صحب حديثه نظرات فاحصة مقتحمة انوثتها وخجلها وطهرها وهو يهمس مكملاً حديثه شهد احمرار وجهاً خجلاً .. " لكنني أقصد يا صبيتي أنكِ جميلة القلب والروح. نقية كالمطر. مبهجة كالورد ، سعيدة كالشوكولاتة "
- " هل ترى ان الشوكولاتة سعيدة ؟ "
- " لماذا تشعرنا بالبهجة والسكينة اذا لم تكن هي من صميم ذاتها سعيدة ؟ "
- " وكأنك فيلسوف ؟ هل يبقى ذهنك في حالة حضور دائم هكذا ؟ "
- ضحك وهو ينظر أمامه أثناء القيادة " يا طفلتي أنتِ ملهمه. أنتِ ساحرة وعفريتة "

فكرت صبا قليلا في كلماته ثم قالت بتردد ..

- " آآ ، عمر .. لماذا لم تخف مني منذ التقينا في المرة الاولى ؟ "

ضحك مرة أخرى ثم قال " هل توقعتِ أن اخاف منكِ ؟ "

- " ألا ترى أنك ماكر اليوم وعلى وجهك تبدو علامات الفرح والسعادة، وكأنك لم تكن منذ قليل برفقة أم ثكلى تنعتك بنذير الشؤم، وأب وأخ جريحين يعانيان ألم الفقد "

" أنا أرى أنني إنسان محظوظ لأنني الآن برفقة المخلوقة التي كانت سبباً في إسعاد الثلاثة اللذين ذكرتيهم والتي هي أيضا سبب فيما يعانونه من ألم الفقد الذي تتحدثين عنه " رمقها بعينين امتلأتا دموع حاول إخفائها قدر استطاعته ..

- " قل لي لماذا لم تخف مني ؟؟"

مد عمر يده إلى المرآة الصغيرة أمامه وأدارها نحو صبا قائلاً لها :

- " انظري .. هنا بالمرآة ! هل هذه الخِلقة البريئة تستطيع إخافة ذبابة واحدة ؟ "

باستياء شديد مدت يدها نحو المرآة لتديرها عنها وهتفت في قمة الغيظ :

- " أنسيت أنني روح أيها الأبله ؟! أي مرآة تتحدث عنها؟! لن أظهر في المرآة ولو حتى لنفسي !! تبدو فكاهياً اليوم يا عمر إلا أن فكاهتك ثقيلة "

- " هل غضبتِ يا حلوتي ؟ "
- " أتحدث معك في أمر بالغ الجدية وأنت تهزأ بي وبأفكاري "

توقفت السيارة فجأة في منتصف الطريق الذي خلا إلا من سيارات مسافرة. فزعت صبا فنظر عمر إليها غاضباً وقال بحزم :

- " أرجوكِ ! .. أنا لا اهزأ بكِ بل أحترمك جداً وأحبك "

فجأة تحولت الدموع في عينيه إلى زهور تتوسل أن تقطفها صبا؛ وتحول لون الشمس من الأصفر الذهبي إلى القرمزي الرائع، واستحالت السماء لوحة بنفسجية، و تساقطت النجوم على الارض لامعة ، وانسكب خَضَار الأرض المريح على اتساعه ليترصع بالنجوم. نجومٌ لامعة في وضح النهار القرمزي الرقيق. شعرت صبا أنها في عالم رسمته في لوحة شاسعة من خيالها هي بتصورها المبهج الخاص. نظرت إلى عمر فوجدت الشيب يتساقط عن وجهه ولحيته وشعره الأسود الناعم ليتحول أمامها إلى فارس طالما حلمت به في حياتها و رسمته في لوحاتها. مد يده برفق وأمسك بيدها الصغيرة الرقيقة ليقبلها. شفتاه تلمسان كفها فينفث فيها نسمة دافئة من هواء يصعد معطراً بحبه لها.

تلاشت السيارة بواقعها و عالمها الأرضي و وقفت الزهور تتابع نظراتهما لبعضهما، وانبعثت الموسيقى مجدداً. إلا أنها موسيقى لم يجد لها مثيلاً من قبل. موسيقى تنبعث حتماً من الجنة أو يعزفها داوود أو ربما تتصاعد من التقاء الروح بالروح .. لا يعرف.

كل ما يعرفه هو أن بين يديه حورية من حور الجنة ترتدي فستاناً زفاف أبيضاً مرصعاً بزهرات بيضاء خجولة و حبات لؤلؤ تجعله أنيقا أكثر مما يبدو. هذه الحمامة البيضاء تتمايل بين ذراعيه على تلك النغمات التي لا يعرف لها مصدراً سوى قلب صبيته. الحياة لا تهبك النعيم إلا مرة، فإن لم تستمتع به فلا تلومنّ إلا نفسك.

راحا يرقصان معاً. أعادته إلى صباه. اختطفته من الشيب الذي قفز سريعاً على عاتقه بعد ما سرقت المحاماة نصف عمره وسرق الزواج نصفه الآخر. ها هو يراقص فتاة لم يتوقع يوماً أن يراها. يقف معها في واحةٍ وحدةُ بنائِها الحب .. الحب فقط.

همس وهو يراقصها :

- " أحبكِ يا صباي ، أحبكِ لأنك أنتِ صباي وعمري الذي لم أستمتع به "
- " وأنا أحبك لأنك الحنان الذي بحثت عنه في صدر أمي و كَفّيْ أبي و ابتسامة أخي. أنت المزيج الناتج عن صهر أرواح ثلاثتهم. تركتهم وجئت إليك. "
- " لا اظن أنني كاذب إذا أخبرتكِ أن قلبي كان ينتظرك. لم يكن باب الحب الذي وقفت عليه خائفاً بابي ولم تكن هي حوريتي. لقد كنتِ لي منذ أن حمد آدمٌ اللهَ بعد عطسته الاولى . "
- " أشعر أنني خلقت من ضلعكَ أنتَ .. أنتَ آدمي وحدي "
- " وأنتِ حوائي، حوريتي و صباي و روحي "
- هل لي أن أسألك سؤالاً "
- " أنا ملك يديكِ آنستي "
- " لماذا طلقت زوجتك !! "

صمتت الموسيقى فجأة؛ وانزعجت ملامح عمر كلها فعادت إليه شيخوخته و اصفرت الشمس عائدة إلى طبيعتها وانحسرت النجوم عن فراش الأرض الأخضر الرائع. انحسر كل شئ من الحلم وعادا مقذوفين من فوهته إلى فضاء الحقيقة، ليجدا نفسيهما ملقيين على الأسفلت الحار؛ عمر في بزته الكحلية و رابطة عنقه غير المحكمة ، و قميصه المبتل عرقاً، و صبا في فستانها الأسود وحجابها الرقيق.

نظر حوله ثم نظر إليها وهو يتنفس الصعداء من الغيظ ثم قال بصوت يقترب من الصياح :

- " باعتقادك هل كانت هذه هي اللحظة المناسبة لطرح سؤال كهذا ؟"
- " لم أكن أعرف أن سؤالي سيزعجك إلى هذا الحد "

في صوتها ندم وخوف كبيرين. أرادت أن تصلح ما أفسدته فاقتربت منه ونامت على فخذه ممسكه بكفه الذي احتوى كفها فلم يظهر منه شيئاً.

- " صبا! .. لقد كنا نغوص في أعماق حلم لا أعلم متى سنعود إليه ، وقد كنتُ في غاية النشوة... فانتزعتِني فجأة بكل ما لديك من قسوة لأسقط أرضاً "
- " أنا قاسية ؟ تقولها مجدداً يا عمر ؟ "
- " صبا ، هل تعرفين ما الذي يعنيه رجل مثلي إذا قال أنه يريد نسيان العالم معكِ ؟ "
- " أعرف يا عمر "
- " لا تعرفين شيئاً "

برائتها تجعلها دائماً تخرج من محكمته و قد غُفِر لها. لكن هذه المرة لن يترك الوقت يمضي. لديه الكثير من الأسئلة التي يود طرحها عليها لعله يتوصل إلى شئ يريح قلبه.

- " صبا ! .. تعالَي نلعب لعبة عيد الميلاد "
- " حسناً ، هل أعجبتك لعبتي ؟ "
- " أهي لعبتك ؟ ."
- " نعم ، لقد اخترعتها كي أجعلك تتحدث لي بما في نفسك "
- " خطوة جيدة ، والآن ، أريد أن ألعبها مجدداً "
- " حسناً "

قاما من مجلسهما على الأسفلت في منتصف الطريق ليختبئا داخل السيارة من حرارة الشمس غير المعهودة في شهر مثل أكتوبر .. فتحت المسجل بإصبعها الدقيق لتبعث الروح في كوكب الشرق من جديد حيث شَدَت لهما

" أغدا القاك ؟ يا خوف فؤادي من غدي " .. ظلت الأغنية تثير شجون قلبيهما وتتغلغل بداخل ذكرياتهما معها ..

أغدا القاك يا خوف من فؤادي من غدي .. تلك التي سمعها قبل سنوات لا تقل عن الثلاثين عندما كانت الموسيقى الشرقية تنبعث من أسفل نافذته حيث الزفاف المنشود. في تلك الليلة ظلت أم كلثوم تتساءل أغدا القاك بينما كان عمر يدفن جثة حبه؛ وحبيبته ترقد بسلام بين ذراعي رجل لا يعرفه ولا يود أن يعرفه يوماً.

يالشوقي وإحتراقي في إنتظار الموعد
ترنيمة عشق وانتظار تغنيها سمية وصبا معاً عبر سماعة الهاتف في جوف الليل بدلاً من أن تسمعها برفقة عصام. ظلت صبا تضحك وهي تستمع إلى صديقتها التي تستعد لإعلان خِطبتِها في اليوم التالي. سيذهبون جميعاً ليرى كل من العاشقين فرحة حبيبه تتراقص في عينيه .. السيدة العظيمة تشدو وعصام خارج الغرفة يجئ ويذهب متوتراً وبرأسه ألف فكرة عن يوم غد الذي أربكه من كثرة الامور التي ستحدث فيه ..

التفتا إلى بعضهما البعض وفجأة سكتت السيدة الخالدة عن الشدو وكأنها علمت أنهم تشبعوا بتراب الماضي وذكرياته ، همست وهي تتحسس المسجل بيدها ..

- " سيارتك تبدو أنيقة جداً، وقديمة في الوقت ذاته"
- " أعترف بأنني بخيل في كل شئ و حتى في مشاعري، إلا أنني أحب سيارتي رغم قدمها وأهتم بها كثيراً "
- " بدلاً من الاهتمام بها، اشتري سيارة جديدة "
- " الورثة سيفعلون "

التفتت صبا إلى وجهه الجامد مذعورة من رده الحزين، كادت لتنهمر بكاءاً من قسوة ما يعنيه ولكنها تحاملت على نفسها وظلت صلبة امامه ..
همس :

- " لماذا نصلي يا صبا ؟ "
- " الصلاة صلة. ألا تحب أن يكون بينك وبين صانعك صلة "
- " صانعي ؟ ... لماذا تبدو كلماتك مختلفة عن ما اعتدت سماعه "
- " ربما لأنني أيضاً لا أحب المكرر من الحديث أو المواقف أو الحياة "
- " الحياة المكررة ؟! "

- " نعم .. هيا لنبدأ اللعبة "
- " لقد بدأتها بالفعل ، ولكن إجابتك لم تكن شافية "
- " الشفاء دائما ما يكون نسبياً "
- " حسناً سأسال بدلاً من التفكير في حديثك الغريب. كيف واظبتِ على الصلاة ولماذا ؟ "
- " تشغلك صلاتي جداً ، لماذا ؟ " نظرة بها تحدٍ غريب أطلت من عينيها ثم تبسمت وأكملت .. " فكرت ذات يوم .. ماذا لو كان اليوم هو آخر يوم بعمري ؟ ووجدت أن الإنسان ليس لديه مأمن من الموت، ناهيك عن ديكتاتوريته إذا جاء فهو لا ينبهك ولا يهبك فرصة ثانية، لذا قررت تأمين نفسي ضده "
- " وماذا ستفعلين إذا جاءتك فرصة ثانية ؟ "
- "كيف ؟ " .. لفظت سؤالها بتعجب قابله عمر بنظرة غامضة لم تفقه معناها فقال سريعاً :
- " ليس لكل شئ كيف يا آنستي "
- " حسناً، الآن دوري في اللعبة "
- " بكل سرور "

توقفت السيارة أمام المنزل الوحيد، وجلس عمر ينتظر سؤالها و شجون كئيبة تنسدل على عينيه لتحجب عنه الرؤية. دموع أمها، جزع أبيها، ونظرة الانكسار التي تطل بخجل من عيني أخيها ...كلما مرت هذه اللوحة البائسة أمام ناظريه، تجمدت الضحكة على شفتيه وصرخت بصدره غصة ألم مرة المذاق ..كانت ترمقه بعينين تشعران تماماً بما يدور في نفسه رغم أنه لم يفهم ما يدور بها.

- " لماذا لا تقرأ ؟ "

باغته السؤال فأفلتت من حزنه ابتسامة ساخرة وهو يحرك رأسه في حركة تدل على استنكار السؤال ومدى سذاجته. التفت وكأنه حكيمٌ سيلقي وصيته الأخيرة.

- " لقد قرأت ما يكفي ، هل أحدثك بخبر ما ؟ "
- " تفضل "

- " إن من يقرأ لحاجة ما، تنتهي قراءته فور انقضاء حاجته التي قرأ من أجلها. لكن القارئ الذي يقرأ فقط للقراءة ذاتها، يشعر بالصِغر كلما تبحر أكثر فيما يقرأ و ينغمس في عمق ما تخفيه الكتب من علوم.
الإنسان عندما يقرأ يشعر باتساع الكون من حوله وبمدى ضآلته وحقارته و غالباً ما تبدأ الهموم في التكاثر فوق رأسه .. في بعض الأحيان يكون الجهل نعمة يا صغيرتي "
- "كيف ؟؟ كيف يكون الجهل نعمة ايها الفيلسوف الرومانسي؟؟! "
- " الجهل أحيانا يحجب عنك مهمات يجب عليك القيام بها. رجل مثلي يعد كاتباً له كلمته بين الناس، فإذا ما اطّلع على ما في العالم من حروب ونزاعات ولم يقل كلمته الفاصلة يعتبر انساناً فاشلاً غير صالح، هل تريدين لي أن أكون إنساناً غير صالح ؟ "
- " وهل تحب أن تكون إنسان جاهلاً ؟ "

أخرسه الرد ولم يعقب. مدت يدها لتلمس أنامله الممسكة بعجلة القيادة وهمست ..

- " آسفة ، لماذا تمسك بعجلة القيادة وكأنك تتشبث بها من الغرق؟ " .. ضحكت وتبعت ضحكتها ضحكاته المصطنعة التي تصاعدت من صدره على مضض.

تذكر مناقشات كتبه ورواياته. كيف كانت تدور وتنتهي ولا أحد يستطيع التغلب عليه أو إفحامه بسؤال لا اجابة له.
طلبة وطالبات في صفوف تمتد في قاعة كبيرة؛ و في مقدمة القاعة منصة عالية جلس عليها عمر وسط ثلاثة رجال طعنوا في السن، وُضعت امامهم طاولة عليها أكواب ماء و مزهريات صغيرة وميكروفونات وهواتف للتسجيل و بضعة أقلام وأوراق و ثلاث لافتات وضعت كل واحدة منهن أمام ضيف تحمل اسمه. لافتة عمر في منتصف الطاولة كُتب عليها بخط أحمر عريض " عمر حسن المصري " وفي الخلف من وراء الثلاثية الفخمة علقت لوحة كبيرة تحمل عنوان إحدى روايات عمر مسبقة بكلمة " حفل مناقشة رواية ... للدكتور عمر المصري ".

في هذا اليوم جلست زوجته بفستانها الأخضر القصير في الصف الاول و على وجهها بدت ملامح التأفف وعدم الارتياح. اخذت تلتفت يميناً ويساراً كلما سنحت لها الفرصة لتشاهد إحدى الطالبات وهي توجه إلى عمر سؤالاً أو تبدي رأيا في رواياته. بعد انتصاف تلك الليلة عادا معا. همست له وهي تصلح ما فسد من مساحيق التجميل على وجهها من أثر تقلص ملامحها المتأففة أثناء الحفل .. " ينافقونك " ..

- " من هم ؟ "
- " أولئك الذين سهروا معك اليوم من أجل كتابك الذي تحدثت فيه عن الحب العذري "
- " و هل كلهم منافقون ؟ وإذا كان حدسكِ صحيحاً ، فلماذا لا تقرئين كتابي وتواجهيني بالحقيقة ؟"
- " لأنني أشاهد في المسلسلات دراما أفضل من ما تكتب ! "

لم ينبس برَدّ عليها بل أنه لم يشعر برغبة في الحديث معها بقية الليلة. دخلت مسرعة وهي تلقي بحقيبة يدها إلى أقرب كرسي لتصعد السلم المستدير بغية التملص من قناع المرأة المثقفة الذي ترتديه مجبرة كي تظهر معه في الحفلات والندوات.

لم تكن تسهر معه من قبل. لكن تلك الفتاة المراهقة التي باغتته بقبلة في نهاية ندوته السنوية في برلين بدت عادية جداً من وجهة نظر الأوروبيين إلا أن زوجته رأتها جريمة شنيعة لابد أن يكفر عنها .. باغتها بالصراخ قائلاً " لو كانت لي زوجة مهتمة بي كشخصية عامة وعلم من أعلام الأدب في مصر، لما تجرأت عليّ فتاة مراهقة تحسب أن قلبي متاح ككل قصصي الناعمة " و منذ ذلك الحين فقد أجبرها على الظهور معه للحفاظ عليه وعلى ما بقي من قلبها بعد حريق الغيرة الهائل.

- " رحلة طويلة في عالم الماضي البعيد ... عنوان رائع لما تشعر به يا صديقي "
- " هه ؟ " التفت عمر بجانبه ليجد نفسه قد اقترب على النعاس وهو في موضعه من كرسي القيادة والشمس قد استوت على عرشها في كبد السماء.
- " هه .. لا .. لا شئ ! اذكرك فقط بصلاة الظهر "
- " متى ؟ "
- " بعد قليل ... ولكن قل لي شيئاً ، لماذا تشعر بالحزن الآن ؟ "

- " لأنني ما كرهت في حياتي أكثر من الموت عندما سلبني عضدي وسندي ، ونبع الحنان في أيامي "
- " لم يكن أباك سنداً وعضداً. لا تكذب !! كما أن امك لم تكن بتلك الدرجة من الحنان!! "
- " عندما تموت ، يحبك الكل فجأة ! .. لقد أحببتهم بعد موتهم يا صبيتي "
- " فسر لي كيف يحبونك فجأة ؟ "
- " لا يمكن .. الآن يجب على الذهاب إلى الصلاة ، ولكن لا تختفي كعادتك !! "
- " لن اختفي .. سأنتظرك."

ما أجمل وجهها عندما تبتسم وما ألذ الحياة معها. حديث يسرد حديثاً وتتوالى الحكايات ...

لذة اللقاء بعد مرارة البعد

ظل عمر سائراً بينما سيارته الحبيبة تقف خلفه خائفة في منتصف الطريق. بالرغم من سكنه بهذا المنزل منذ فترة طويلة إلا أنها المرة الأولى التي يكتشف فيها أن المربع المحيط به خالٍ من أي مسجد أو مكان يصلح للصلاة ..

فكر هل يصح له ان يصلي في العراء ؟ ولكن أين القبلة ؟ تيه غريب يجذبه من قدميه ليسقط ولكنه يجاهد حتى لا يسقط هذه المرة .. احتاج أن يعود إلى السيارة كي يستقلها حتى أقرب مسجد، لكنه أبى الإستجابة إلى حاجة نفسه كنوع من العقاب على ما فرط فيه من ماضي صلاته.

شعورٌ قوي بالذنب يسكنه، وشريطٌ سينمائيٌ من الخطايا يمر عبر شاشة عينيه. اختلط عليه الامر. هل فعلاً شرب خمراً في برلين أم أنها مجرد أمنية حَلُم بها واستحوذت على جزء من تفكيره وعقله الباطن ؟ ترى هل ضاجع تلك الفتاة التي منحته القبلة غير الشرعية الوحيدة في عمره ؟ أم أنها أيضا مجرد أمنية ساورته و اشتدت عليه في فترة ارتفعت فيها رغبات ذكورته ؟ تحت حرارة الشمس ارتفع أذان الظهر من مكان ما. وصله صوت المؤذن وهو يصدح عبر الأفق البعيد:

اللهُ أكبرْ اللهُ أكبرْ .. اللهُ أكبرْ اللهُ أكبرْ
أشهد أن لا إلهَ إلا الله .. أشهد أن لا إله إلا الله
أشهد أن مُحَمَّداً رسولُ الله .. أشهد أن مُحَمَّداً رسول الله
حيّ على الصلاة .. حي على الصلاة
حيّ على الفلاح . حي على الفلاح
اللهُ أكبرْ .. اللهُ أكبرْ
لا إله إلا الله

للكلمات وقع غريب على أذنيه .. وكأنها رسالة حُمِلت إليه خصيصاً عبر الهواء والرمال والسماء. كل أصوات مدينته الصامتة التي احتوته سنوات عديدة لم تستطع طرق قلبه كما طرقت قلبَه كلماتُ المؤذّن المجهول الذي يناديه للصلاة.
فكر وهو يسير في اتجاه الصوت .. ترى ما الذي ينُهض رجلاً مثل المؤذن من فراشه في هذه الساعة الحارة من النهار أو ربما نهض تاركاً عمله، وقد يكون مريضاً لكنه يتحامل على ذويه حتى يأتوا به إلى المسجد ليرفع الأذان. ترى هل يشعر المؤذن بهذه المسؤولية العظيمة تجاه المسلمين .. هل سيأتي يوم يغفل فيه مؤذن عن النداء إلى الصلاة فيضل الأمة ويؤخرها عن الصلاة ومن ثم يدخلون النار جميعاً ؟ أم سيعذب بآثامهم وحده ؟

السؤال العبقري : كيف يشعر المؤذن باقتراب موعد الصلاة ؟ من محطة القرآن ؟ ومن أين تعرف المحطة ؟ من ساعة التقويم ومن الذي وضع المواعيد بساعة التقويم ؟ ومن الذي وضع التقويم ؟ عمر بن الخطاب ... عمر آخر في هذه الحياة وضع شيئاً ينقذ الانسانية من الضياع. وضع تقويماً يساعد البشر على إدراك مواعيدهم ويساعدهم على الاحتفاظ بذكريات أحداثهم السعيدة والتعيسة أيضاً ، ترى أين أنت يا عمر ؟ هل يسكن الجنة مع بقية الصحبة الصالحة أم أن له روحا عالقة تظهر لأحدهم في بقعة ما من بقاع الارض ؟!

ظلت الخواطر تتلاعب برأسه وهو يفكر ما الذي فعله ليكون في مقارنة بابن الخطاب .. سخر من نفسه وهمس لها
"هو ابن الخطاب وأنت ابن المصري ، هيهات هيهات أن تصل لمقارنة معه أيها الصعلوك " ... آلمته السخرية وامتعض لشدة ما لحق بنفسه من حزن على مدى وضاعته .. فواصَلَ المسير وهو يحث الخطى ثم بعد قليل بدأ في هرولة نقلت روحه إلى فراغ يشبه العدم، وامرأة مجهولة لم يشاهدها من قبل تهرول بجواره، أمامه، خلفه، تغدو وتروح. على وجهها بؤس من وعثاء سفر، لها كفان يهيمان في الفراغ، تهرول سريعا وهي تمر بجانبه؛ و شبه تمتمه يسمعها تنبعث من بين شفتيها حتى تبلغ سعيها ليراها واقفة على قمة جبل تنظر يمينةً ويسرةً في حيرة وخوف. ومن ثم وبلا أدنى فتور يراها تنزل عن الجبل و تعود بذات الهمة وذات القلق. ومن بعيد، صوت طفل يبكي ... يشتد بكاؤه والحيرة تكاد تقتل عمر. ظل غارقاً في سعيه والعرق يكلله حتى ارتمى على عتبة المسجد .. أخيرا بلغ مسعاه.

ناوله أحدهم كوباً بارداً من الماء لا يدري من أين جاء ولا كيف عرف بمدى عطشه. شعر للمرة الأولى أن الله يحرسه، يعتني به .. فاقشعر جسده لذلك الشعور بالعناية الإلهية التي تغمره. دخل إلى المِيضَأة وشرع في الوضوء .. انسكب الماء على جسده عضواً تلو الآخر فبدأت حياته تعود إليه رويداً رويداً .. تذكر تلك السيدة التي كانت تسعى، وارتسمت أمام عينيه سبورة سوداء كتب في وسطها بخط نسخ كبير " بسم الله الرحمن الرحيم " أسفلها كتب بذات الخط " قصة سيدنا إبراهيم و سيدنا إسماعيل "

سريعاً مرت أمام عينيه لقطات من القصة يرويها معلم التربية الإسلامية في فصل يحتوي قرابة أربعين طفلاً ينصتون في شغف لما يروى عن النبي الذي قرر ذبح ابنه لمجرد أنه رأى ذلك في الحلم .. لم يصدق عمر حينها هذه القصة ويذكر أنه رسب في هذه المادة لعدم تصديقه للقصة وعدم اهتمامه بها. كان يهمس لنفسه "كيف يقتل الإنسان ابنه فقط لمجرد حلم ؟ " .. صوت المعلم ينبعث إلى عقله وهو يمسح على شعره " رؤيا الانبياء حق يا بني. هي أوامر إلهية. وحي كالقرآن " .. لكن القرآن لم يتنزل على النبي وهو نائم .

ابتسم لذكرياته الساذجة وخرج إلى المسجد مبللا منتعشاً. ساوره قلقٌ غير معهود. قلقٌ أبوي نحو تلك التي تركها مع سيارته في العراء .. لكن مشهد الصفوف أمامه انتزعه من كل ما يشغل تفكيره. رهبة تشبه رهبة أول لجنة اختبار. وبرودة تسري في جسده كتلك التي يشعرها عندما يمشي – بالصدفة – في جنازة أحدهم. .. خدر ينبعث في نفسه ورغبة في البكاء منعها تحرجه الشديد من كم المصلين من حوله. كبّر الإمام وانطلقت جيوش من التكبيرات و بينهم تكبيرته الخائفة اللاجئة .. صلاة الظهر صلاة صامتة لا تسمع فيها سوى همهمات المصلين وهم يتحدثون إلى ربهم .. فجأة وجد نفسه يقف وحيداً و عيناه تنظران إلى الأرض. تلك الأشجار غير المعلومة له تتشابك في بعضها بطريقة سريالية جذابة تشهد على اسرار المصلين وشكواهم وحزنهم وفرحهم وتسبيحات تخرج مفعمة بخشوع حقيقي لدي البعض و زائف كاذب لدى البعض الآخر ..

لم تكن مشكلة عمر من حوله من مصلين. ولكن المشكلة الوحيدة التي علقت في قلبه كالجثة هي ذلك السؤال .. ترى هل سيقبلني الله بكل هذه السنين الصفراء الذابلة .. شعر لوهلة أن الله يقف فوق رأسه، يستمع إلى تساؤلاته، ينظر في صدره المشبع بالخوف والرهبة. شرع في قراءة الفاتحة بهمس. بدأت محادثة لم يجرها منذ زمن بعيد. خرجت من بين شفتيه " الحمد لله رب العالمين " .. ظل بعدها مطرقاً ينتظر رد الله

عليه قائلاً " حمدني عبدي" لكن الصمت المطبق جعل الخوف يربض أمامه يود أن يلتهمه في قضمة واحدة. بفزع شديد توقع الرد الذي يستحقه " هل تعرف الحمد أيها العاصي ؟! " .. لكن مرة أخرى كرر الآية وهو يهمس لذاته " الله لا يلومنا ولا يردنا خائبين ، الله رحيم بنا" .. وتكرر الفزع مرة أخرى. انفجر البكاء من عينيه بلا أي محاولة لحبسه فاسترسل في تلاوة توسل إلى الله. " الحمد لله رب العالمين ، الرحمـــــــن الرحيـــــــــــم " تجسدت الآية في يدين باردتين تربتان على كتفيه وهو يكمل تلاوته بعد ما ارتفع نشيجه. لم يستطع تلاوة سورة أخرى من سور القرآن. فقد ذاكرته القرآنية كتلة واحدة في غمرة خوفه وتوسله إلى الله أن يقبله. ركع وهو لا يريد الاعتدال من ركوعه، ثم اعتدل منضماً من جديد إلى الجماعة. فاجئه هذا الكم الهائل من المصلين من حوله وهو ينهنه مثل النساء بين يدي ربه. ظلت مشاعره تتقلب في كل ركن من أركان الصلاة و هو يحاول استدعاء الطمأنينة بشتى الطرق. ويتوسل إلى الله تبارك وتعالى أن يغفر له. فكر في فكرة مجنونة. لن يخرج من صلاته حتى يتنزل عليه وحي من الله بأنه مغفور له ! "الوحي لا ينزل إلا على الأنبياء والرسل" قاعدة أخرجته من الصلاة بخيبة أمل إلا أنه خرج أيضاً بقلب ادماه البكاء والتضرع و الندم. ثلج خفي يُمرّر على قلبه وشعور بالسعادة يقطر من عينيه الباكيتين. صافحته أكف المصلين من حوله وهو ذاهل أمام القبلة. تمنى أن ينفرد بالله ساعة يحدثه ويحاوره ويسأله ويستغفره ويستجدي عفوه . لمع سؤال في عقله جعله يبدو أمام نفسه كالطفل الصغير.

هل لله قلب ؟!!!

الإجابة التي أشعرته بالرضا .. طالما أنه يحب عبادة إذن له قلب ، وإلا .. أين يسكن الحب الذي يشعره تجاه أولئك المصطفين المحبوبين ؟ ... يالك من ساذج

سخر من نفسه وقام من مجلسه وهو يتمتم باستغفار خافت ، الآن عليه العودة إلى تلك الحورية التي سخرها الله له لكي تعيده إلى الطريق التي هجره قديماً .

حقيقة !

أحياناً تبدو الطرق أطول من حقيقتها وأحياناً أخرى تبدو أقصر، تماماً كأعمارنا. للمرة الأولى يتسلل إلى صدره شعور بقصر عمره و ضيق الوقت المتبقي لديه. سيطلب من الله أن يمهله أو يكتب له فرصة جديدة في العمر. هل يضحك الله من طلباتنا التي تبدو في عينيه صغيرة جداً ؟ .. أغمض عمر عينيه في طريقه للعودة وأخذ يتخيل ..

الله الذي خلق الكون بأبعاده التي تفوق التصورات يجلس بهيئته كإله لينظر في مطلب عبد لا يتجاوز حجمه قيد أنمله أمام الله الكبير ؟؟ .. العبد يتوسل بكل ما بقلبه من إيمان؛ ففي هذه الجنيهات التي يطلبها، أو الزوجة التي يبتغيها، أو الطفل الذي يريده و في أي مطلب حياته وسعادته. لكن الله ينظر بهدوء يليق برب عظيم ثم يبتسم، والملائكة حائرون خاشعون لا يعلمون هل الله يبتسم لرضاه عن عبده أو يبتسم ساخراً من وضاعة عبده وصغره ! لكن الله لم يكن ليحتقر عبده، صناعة يده، خليفته. الله يحب عبده ... إذن فهي ابتسامة رضا ...الملائكة تتمنى لو أنهم يملكون شعور الحقد كي يملأ الحقد قلوبهم تجاه البشر لكنهم لا يملكون صفة الحقد. لذا فهم لا يتقاتلون ..

- " إلى أين ذهبت وتركتني ؟ "

بحزن صاحت صبا لتخرجه من أفكاره العجيبة وهي تجلس في انتظاره كالزوجة المخلصة ، همس بشكل لا إرادي وكأنه نسي كونها روح

- " ولماذا لم تأتِ للصلاة ؟! "
- " هل تعرف أنني اشتاق للصلاة فعلاً ؟ "
- " ولما لا تفعلي ؟ .. ستغمرك سعادة ليس لها مثيل"
- " نقطع عمل ابن آدم بعد موته يا عمر ، عندما تتحرر من جسدك يسقط عنك التكليف، وتنتقل إلى مرحلة الثواب والعقاب "
- " هل عوقبتِ ؟ "
- " لا .. لم أزل في مرحلة الانتظار، البرزخ، لم أنزل القبر بعد "

- " هل القبر موحش ؟ "
- " لم ازره بعد .. ولكن حتماً سيكون كذلك "
- " ومن أين لكِ بحتميته .؟ "
- " تخيّل ، نفسك مربوط الأيدي والاقدام، مغمى العينين، تسكن مربعاً لا هواء فيه ولا ضوء. ظلامٌ وبردٌ فقط .. ألا تخيفك مجرد الفكرة ؟ "
- " هل تخيفك فكرة القبر ؟ "
- " اعترف يا عمر أنها تثير الذعر في نفسك وليس فقط مجرد الخوف "
- " لكنكِ فتاة صالحة "
- " ضمة القبر موحشة ، هل يمكنني ان أطلب منك شيئاً ؟ "
- " لكِ عمري "
- " اذهب إلى أبي وانتظر أن يسمح لهم الطبيب بدفن جثتي ، وانزل معي القبر ! "
- " جادة فيما تقولين ؟ "
- " أتوسل إليك يا عمر، أرجوك .. ستكون هذه الليلة هي ليلتي الاخيرة معك وليلتي الأولى في دار القرار"
- " هل أفضي اليكِ بسر عظيم ؟ "
- " عدني أولا بأنك ستفعل "
- " هل لو كنت أنا المتوفى وطلبت منكِ الشئ ذاته ستفعلين ؟ "
- " نعم"
- " حسنا فلنتفق. من ينزل منا القبر أولاً، يبيت معه الآخر ليلته الاولى "

كانت المحادثة أشد من أن يحتملها عمر وتحتملها صبا. شعرا بالحزن والخوف والقلق معاً. وضع يده حول خصرها وراحا يسيران سوياً. اختفيا بداخل المنزل وهما يتبادلان أطراف الحديث تجنبا فيه القبر و

وحشته التي تطبق على القلب بمجرد ذكره أو تخيل مدي قربهم من السقوط فيه. جلس الاثنان على الأريكة في غرفة المكتب التي شهدت لقائهما الأول. نظر إليها وابتسم قليلاً ثم قال بمرح :

- " أنا وأنتِ وحدنا ، والشيطان قد اقترب موعد وصوله ، فماذا نحن فاعلون ؟ "
- " الشيطان ؟ "
- " أجل يا آنستي .. ما اجتمع رجل وامرأة إلا ماذا ؟؟؟ "

نظرته الماكرة حازت على إعجابها وقلقها في الوقت ذاته. لكنها لكزته في صدره و هتفت :

- " أيها المجنون ، الحديث يقول رجل وامرأة .. وانا لست امرأة "
- " لستِ امرأة ! "
- " نعم ، أنا روح ، هواء يسكن عقلك، حسب اعتقاد العلماء واطباء النفس سيقولون لك أنك تعاني من هلاوس بصرية. إنني مجرد هلاوس يا صديقي "
- " هلاوس ! "

فكر عمر في كلماتها المازحة ولكن بجدية عاد سريعاً إلى كل محادثتهم، ظهورها، اختفاءها، ملابسها، افكارها ... هل فعلاً تظهر الأرواح هكذا بغتة ؟ من الواضح أنه لابد من زيارة سريعة إلى طبيب نفسي. انخرط نحو دفتر التليفونات المنفي في أحد الأدراج وفتحه بقلق باحثاً عن طبيب نفسي. وجد ضالته فجلس إلى مكتبه ممسكاً بسماعة الهاتف يطلب الرقم بهدوء مصطنع وهو ينظر نحوها بابتسامة غريبة ..كانت ترمقه بنظرة شذرة مستاءة من تصرفه.

صرخت بوجهه اثناء اجراء المكالمة :

- " عمر !!! ، هل تظن أنني مرضٌ أصابك ؟ هل حبك لي مجرد مرض نفسي تسرع للتخلص منه ! "
- " لا يا حبيبتي "
- " حبيبتك ؟ "
- " نعم ، فأنا لم أشعر بالحب يوماً قبل لقائكِ "

- " والآن .. تهرع إلى الطبيب كي يخلصك مني ؟ "
- " وهل سيفلح الطبيب في فعل ذلك ؟ "

فتحت فمها لتحر له جوابا لكنه قطعها بإشارة من يده، فسكتت حزناً.

- " آهلا ، هل هذه عيادة الدكتور محمود ؟ "
- .....
- " حسنا ، أنا ... " نظرة تردد وحزن يرمق بها صبيته التي بدأت في بكاء خافت بغير صوت ، " أريد تحديد موعد مع الطبيب لو سمحتِ "
- .....
- " حسنا ، غداً ؟ في الخامسة عصراً ، أشكرك "
- .....
- " إلى اللقاء "

وضع السماعة من يده وعاد ليجلس بقربها. امسك كتفيها وهو يسألها برفق عما أحزنها. لكنها أشاحت عنه بوجهها وهي تهمر حزناً وبكاءاً .

- " حبيبتي ، سنذهب سويا وستحضرين معي هذه الجلسة ، هي فقط لمجرد الاطمئنان "
- " هل تساورك الشكوك وتحتاج إلى من يطمئنك ؟ "
- " أقسم لكِ أنك حتى لو كنتِ مجرد مرض فلن أتخلص منكِ بإرادتي. أنا احبك يا صبا ، أحبك "
- " تحبني ؟ "
- " جداً يا طفلتي. هل جربتِ مرة أن يصبح لكِ سر صغير يسعدك والعالم لا يعرف عنه شيئاً؟ "
- " نعم .. جربت. أنت سري. رواياتك التي كنت أسرقها أحيانا من المكتبات، و لوحاتي، وخواطري، كل ذلك كان سراً كبيراً يبلغني السعادة وأكثر "

- " وأنتِ كذلك. ظهورك المفاجيء، غناؤك، جمالك، كل ما فعلتيه فيّ سر يغمرني ويخطفني ويسكنني. لا تجزعي. لن اتركك يا صبا "
- " أنا التي لن تتركك حتى وإن قطعت الأرض بحثاً عن شفاء لك مني "
- " ألهذه الدرجة ؟ "
- " نعم "

قهقه عمر أمام طفلته التي بدت جميلة. هذه المرة جمال بنكهة غضب رائعة. ينبض قلبه وفي عقله هاجس كارثي متسائل .. " لو كنت مريضاً بها فعلاً .. ماذا ستفعل ؟!" هل ستخضع لها وتكمل ما بقي من عمرك مريضاً ؟ وما المرض وما الصحة ؟ هل هناك فارق ؟ وإن كان المرض بهذه الدرجة من الجمال، والصحة هي القحط والفضاء السابقين إذاً فما أجمل المرض !! ..
تنظر إليه وهو يفكر فتتركه شاردا وتقوم لتأخذه إلى ساحتهم المعهودة. مسرحاً سحرياً يفتح فقط من اجله. صالة غير متاحة إلا لمشاهد واحد يجلس في زاوية المسرح بدلاً من الجلوس على أحد المقاعد بعيداً. يحب متابعة الرقصة من قلبها. يتنحى جانباً عندما ترهَق الراقصة وترتمي بجواره كالزهرة المقطوفة بيد غاشمة.

دارت ودار الكون في معها. حملته على عاتقها و أخذت تدور به و معه، تضحك عالياً، و موسيقى مجهولة تنبعث وترتفع رويداً رويداً و كأنها دوامة يغرق فيها ...
سألته وهما يرقدان و ظلهما يمتد حتى منتصف المسرح :

- " لماذا لم تنجب ؟ "
- " لم يشأ الله أن يرسل إلى الارض مزيداً من الخيبات "
- " أريد إجابة أكثر تفصيلاً. حدثني أرجوك "
- " قديماً كنت أحلم بأن يكون لي تسعة أبناء أسمّيهم بأسماء الانبياء. آدم ، إدريس، نوح، إبراهيم، إسماعيل، يعقوب، يوسف، موسى، عيسى .. كنت أحلم بأن يصبحوا فرساناً فأتركهم يمارسون الحياة بالطريقة التي يريدونها. ولكن إذا كان رب البيت بالدف ضارباً، فما شيمة أهل البيت يا صبيتي؟ "

- " الرقص أيها الضارب "
- " لم يشأ الله أن تصبح لي ذرية ضعيفة تخيب خيبتي"
- " أين خيبتك هذه ؟ "
- " الخيبة هي ما كنت عليه قبل وصولك إلى حياتي. لا أذكر متى آخر مرة صليت فيها. أكتب الروايات و أنال الجوائز من ورائها لكنها تبقى حبيسة الأدراج و الأرفف لدى قراءها. هل أخبرتكِ يوماً أنني اشتهي كوبا من القهوة المرة ؟ "
- " لا لم تفعل". التفتت اليه بدهشة وهي ترد عليه.
- " عمري خمسين عاماً لكنني لم أشرب يوماً كوباً من القهوة المرة ! ، ربما لو فعلت لكان لي من الأبناء تسعة كما تمنيت "
- " وما علاقة الأبناء بمرارة القهوة ؟ "
- " لا أعلم " .. ضحكا معا من سذاجة حديثه لكن حسرته قطعت عليه ضحكه فتنهد قائلا :
- " لقد وضع الله بركته في مداد قلمي ولم يضعها في مداد ظهري. عشت عمري جافاً كمجرى نهرغضبت عليه السماء فلم تعد تمطره "
- " وزوجتك ! ألم تتذمر من هذا الامر ؟ "
- " زوجتي تعبت من كثرة التوسل للذهاب إلى الطبيب وأنا الذي أمنعها "
- " لأنك ذهبت وحدك ؟ "
- " خشيت أن تهتز صورتي أمامها وتكرهني أكثر مما احتمل "
- " لكنها لم تكرهك "
- " حتماً ذهبت إلى الطبيب في غيابي، وحتما علمت بالحقيقة "
- " وما يدريك ؟ "
- " لأن مطلبها الذي دأبت على طلبه مني سنوات طوال خفت مرة واحدة وكأنه قمر فقد الجاذبية فلم يعد يدور في فلكه. سقط في هوة سحيقة و لم يعد "

- " زوجتك ماهرة في تحمل صعابك ومساوئك "
- " وأنتِ ؟ "
- " أنا .. ماذا ؟ "
- " هل ستتحملين ما أعانيه من مرض ومن بؤس وكآبة وغيوم ؟ "
- " لا ، بل سأشرق في ظلمائك حتي تنقشع الغيوم وتخضر أرضك جراء المطر"
- " أنتِ شاعرية "
- " وأنت ملهم "

ظلت المحادثة تسرد نفسها وتنزوي بهم في ثنايا الذكرى ثم تعود مجددا إلى بهجة الحب. تعلو ضحكاتهم حتى تلمس السحاب و من ثم تئن جروحهم في أسفل درجات الجحيم.

الوقت لا قيمة له إذا لم نمضيه برفقة من نحب. الوقت حبل يلتف حول العنق إذا ما كان انتظاراً.

زيارة الطبيب

ليس من السهل على المرء الاعتراف بوجود خلل عصبي أو نفسي بشخصيته. كما أنه من المستحيل تقريباً أن يتجه رجل بالغ عاقل إلى عيادة أمراض نفسية من تلقاء نفسه. في العادة يلاحظك أقربائك والمحيطون بك، يساورهم شعور خفي بأنك غير طبيعي لدرجة الخطورة. خوف ما يتشعب داخل أعماقهم فتبتدئ الاحتمالات والدوافع والمبررات .. ومن ثم بلاغ صغير إلى مصحة نفسية، وربما حملوك متطوعين إلى هناك كي يأمنوا شرّك ويسلموا من أذاك. ترى ما الأذى الذي قد يحمله كاتب مرموق يعلم الناس الحب !

متخفياً بنظارة كبيرة سوداء دخل عمر إلى الردهة الخالية من البشر. بها فقط بضعة مقاعد جلدية سوداء ومكتب صغير يحتجز وراءه فاتنة ترتدي ملابس بيضاء. شعرها ينسدل سلاسلاً ذهبية على كتفيها. لها عيون واسعة وشفتان كبيرتان، وعلى وجهها قدر لا بأس به من مساحيق التجميل. ظن عمر أن ذلك وهمٌ يتصوره، لكنها تحدثت بغنج شديد

- " مرحبا هل أستطيع مساعدتك ؟ "

عبارتها تقول غير ذلك ، و كأنها تقول هل استطيع التهامك ؟! ، هل أستطيع إغرائك ؟ هل يمكنني قضاء ليلة في فضاءك ؟ ...

زفر عمر زفرة غضب وهو يردع نفسه عن هذه التأويلات الماجنة. التفت بعيداً عن مدار عينيها وقال باقتضاب :

- " لدي موعد مع الدكتور محمود "
- " حسناً يا سيدي .. أتشرف باسمك ؟ "
- " عمر ، عمر المصري "
- هتفت الممرضة بذهول كبير "الكاتب المشهور !!"
- " وما المثير في الأمر؟ أجل هو أنا "
- " لا شئ يا سيدي ولكن .. سعدت كثيراً بلقاءك "
- " أنا أسعد. هل يمكنك إخبار الدكتور بمجيئي ؟؟ "

- " سأفعل ، وسيسعد بذلك كثيراً "
- " ممتن لكِ "

التفت ناحية اليسار، إنها صبا.. تقف بجانبه بفستانها الأبيض و شعرها المتطاير بفعل هواء خفي ينبعث فقط من عالمها هي. علامات الامتعاض تبدو جلية على وجهها. همس وهو يضحك ساخراً من غيرتها ..

- " هذا النوع لا يعجبني "
- بغضب همست " فتاة رخيصة ! "
- " لماذا ؟ "
- " ألم تشاهد طريقة حديثها ، ومشيتها ، اقصد تغنجها ، كيف تعمل ممرضة ؟ "
- " يهتمون دائماً بحسن المظهر "
- " تقصد عهر المظهر ! "
- " تأدبي "

رمقته بنظرة منكسرة وتلاشت بعد كلمته الحازمة .

غرفةٌ مستديرةُ الجدران؛ ضوءٌ خافتٌ؛ مكتبة بها مجموعة قليلة من الكتب وبضعة تحف؛ بعض من نباتات الظل ذات المنظر الكلاسيكي الهادئ ؛ ومكتب في الزاوية و بركن منه زحام من قطع مكعبات الليجو. وفي الركن المقابل رجل من النحاس لا يتعدى طوله خمسة عشر سم، وقف متحفزا وبيده بندقية دقيقة. حتماً سيعجب صبا.

وراء المكتب المزدحم بأشياء أخرى غير الليجو والتمثال الصغير، جلس رجل في الثلاثين من عمره، لا يرتدي النظارة الطبية التي اعتاد عمر رؤيتها على وجوه الأطباء. له شعر قصير وجبهة عادية وعينان تشعان بالأمل. و بالرغم من ذلك الشعور الذي سيطر على عمر بزيف هذا الأمل إلا أنه حاول تصديقه. وقف الرجل من وراء مكتبه مرتدياً قميصاً قماشياً أبيضاً له اكمامٌ طويلة وبه عدة أزرار سوداء. مد يده ليصافح عمر ثم جلس وجلس

معه عمر على أحد المقعدين الموضوعين أمام المكتب. التفت يبحث عن ذلك السرير الصغير الذي يتمدد عليه المرضى النفسيين وهم ينظرون إلى السقف الصامت. ثم نظر إلى الدكتور فوجد ابتسامة عريضة تنتظر حديثه.

- " هل تبحث عنه ؟ "
- " هه ، عن ماذا ؟ "
- " الشيزلونج "
- ضحك مرتبكاً .. " في الحقيقة سمعت عنه كثيراً ، ومن الواضح أنك لا تملك واحداً لأنام عليه "
- " لكي أكون صريحاً ، يسعدني أن أخبرك أن موضة "الشيزلونج" انتهت يا سيدي، والآن .. ما هي مشكلتك ؟ "
- " مشكلتي ... آآآ ، في الحقيقة لا أعرف، ولكن أشعر بشيء ما "
- " و ما هو ذلك الشيء ؟ "
- " لا أعلم يقيناً "
- التقط الطبيب قلما من فوضى مكتبه و قال .. " لم نتعرف بعد ، أنا محمود عبد الملك وحضرتك ؟ "
- " عمر .. عمر المصري "
- " الكاتب الرائع ، وهل يخفى القمر ؟ "
- " أظنك لا تعرفني "
- " بل حضرت ندوتك الأخيرة منذ شهور "

ساوره شعور بأن الطبيب يكذب إلا أنه ابتلع هذه أيضاً، فقام واقفاً وأخذ يروح ويجيء في المكتبة بينما الطبيب جالسٌ في مكانه لا يحرك ساكناً. فقط عينان تتبعان عمر في ذهابه و مجيئه حتى توقف عمر أمام المكتبة والتقط كتاباً يطالع فيه وهو يقول :

- " هل تؤمن بالأرواح يا دكتور محمود ؟ "
- " تقصد الغيبيات ؟ "
- " أقصد .. هل جاءك طارق بالليل فقمت لترى من الذي جاءك لتجد فتاة صغيرة بعمر أحفادك تخبرك أنها روح و أنها تعشقك "
- "آآآممم ، لا أظن أنه حدث لي ذلك و لكن .. هل حدث لك شئ من هذا القبيل ؟ "
- التفت عمر إلى الطبيب بعينين امتلأتا باليقين وقال " هذا بالضبط ما أتيت إليك من أجله. لقد حدث لي فعلاً ولا أعرف هل يمكن للإنسان أن يشاهد روحاً؟ "
- " أحياناً تحدث أموراً خارجةً عن نظام سيطرة العقل البشري ومدي استيعابه. ولكن هذا لا يعني عدم صحتها ، تفضل بالجلوس سيد/ عمر وأخبرني بما حدث تفصيلاً "

جلس عمر بالفعل لكنه شعر بسرية ما سيسرده. ظل يحدق في الطبيب و في الجدران المبهمة والمصباح الخافت. الجو خانق والشمس تتلاعب بعقله من وراء ستار وضع على النافذة الكبيرة الوحيدة بالغرفة. ظل يبحث عن مقدمة للحديث لكن دون جدوى. باءت كل محاولاته بالفشل و لم يستطع أن ينبس سوى بقول غامض لم يستطع الطبيب فهمه :

- " أنا خائف !! "
- " من ماذا ؟ أو من مَنْ ؟ "
- " لا أدري "

اعتدل الطبيب خلف مكتبه وأمسك ورقة وأخذ يكتب وصفة دوائية، ثم همس بشئ من الحميمية.

- " لا تخف أيها الكاتب الكبير، كلنا حولك، كلنا نحبك، إذا كنت قتلت أحدهم على اوراقك فلتأخذ قسطاً كافياً من الراحة حتى يستريح المرحوم بمقبرته؛ ولن تظهر لك روحه مرة أخرى، واحرص على تناول هذا المهدئ سيجعلك تنام جيداً "

نظرة ارتياب متبوعة بنظرة احتقار ، بعدها همس عمر " أشكرك يا دكتور "

- " على الرحب والسعة "

- " وداعاً "
- " لا تقل وداعاً ، (ابتسم بسخافة) سنلتقي مرة أخرى "
- " لا أظن "

غادر عمر وهو يشتعل غضباً وحزناً و يشعر في الوقت ذاته بسعادة بالغة. لقد تجاوز الأمر مرحلة السيطرة عليه. طيلة حياته لا يحب الأطباء بصفة عامة وأطباء الاسنان والأمراض النفسية بصفة خاصة. فالاول كسر له سناً في خطأ طبي جعله يكره أسنانه طوال عمره، و ها هو الثاني يشعره بمدى سخافة الأطباء جميعا.
قابلته صبا وهو في طريقه إلى المنزل بعينين تفيضان حبا، تجلس بجواره على المقعد الأمامي في سيارته. امسكت بذراعه فالتفت إليها و ابتسم ابتسامة طويلة تنم عن راحة وسكينة تملأ قلبه. همس وهو ينظر إلى ساعة يده.

- " ما رأيك في زيارة قصيرة لكِ ؟ "
- " لي ؟ "
- " لوالدتك وعائلتك جميعاً "
- " هل تريد قول شئ آخر ؟ "
- " أريد التماس الرضا من والدتك "
- " إذا رأتك ستقتلك ، هي الآن تكرهك جدا "
- " ولكن ... أريد رؤيتك "
- " ها أنا ذا معك "
- " لا أريد وجهك الحقيقي ، ملامحك المجهدة النائمة "
- " تقصد الميتة "
- " لم تموتي بعد يا صغيرتي ، ولن أتركك للموت "
- " ماذا تقصد ؟! "

- " سأفعل كل ما في استطاعتي حتى أعيدك إلي فانا أحتاجك فعلا و لم يعد لي بالكون سواكِ "
- " والورثة ؟ "
- " من أين ؟ "

بهتت صبا مصدومة من مدى الوحدة التي يعيشها حبيبها الأوحد. فكرت لو أنها هربت من منزلها في تلك الليلة التي انتهت فيها من قراءة روايته الأخيرة. و بعد ما شبعت بكاءاً و نحيباً على البطلة الميتة، ساورتها رغبة شديدة في احتضان عمر وتقبيله. رغبة مراهقة تلمع في الأفق على إثرها أمسكت القلم والأوراق وأخذت تفرغ طاقة الحب الهائلة بداخلها لترسمه في عدة لوحات. تلك التي احتفظ بها عمر في مكتبه الآن .. تمنت لو أنها هربت إليه بدلا من الاكتفاء برسم ملامحه. تمنت لو أنها على قيد الحياة الآن ؟ التفتت اليه تساله :

- " هل سنتزوج إذا عدت إلى الحياة ؟ "

باغته السؤال فلم يعقب. أغمض عينيه وبدأ في تخيل وجهها الرائع وهي تبتسم فرحاً بجانبه وهو في أحد الامسيات يحاضر الطلبة ويحدثهم عن فلسفته الخاصة. ستكون في أوج شبابها عندما يتم عامه الستين بعد عشر سنوات. ستقف على باب الحب خائفة من بعده أو ربما هاجمها حب من مثل سنها لتسقط في خيانة لا يحب مذاقها .. ربما ندمت على عودتها إلى الحياة من أجله ... ربما وربما وربما !!! .. ماجت رأسه بين الاحتمالات بين الافضل وبين الاسوأ. لا يستطيع إعطائها رداً ولكنه لا يريد فراقها. ماذا لو تبناها ؟ هل سيقبل والدها ؟؟

هل سترضى بكونها ابنته؟ لماذا لم يخلقها الله ابنته من البداية ؟ لماذا لم يقدر لهما أن يلتقيان قبل الآن ؟ ... الضجر يملأ صدره ويفيض . أخرجه منه همسها المستسلم

- " هيا لنذهب إلى هناك "
- " حسنا .. سأبدل فقط ملابسي "
- " سيكون أفضل ... سأنتظرك "

الزيارة قبل الأخيرة .

الموت أحيانا لا يأتينا ولكن نحن من نذهب إليه .. !
تخلو الغرفة للمرة الأولى من أفراد الاسرة الأفاضل كما يخلو فراشها ! ، فزع عمر من هذا المشهد التي يعرفه جيداً. تذكر عندما سافر إلى مدينة لا يذكر اسمها في حينه، وكانت أمه منذ ما يقرب من العام ترقد على فراش يشبه هذا الفراش .. عاد ليجد الغرفة فارغة من أي أثر لأمه. يومها شعر بثقل شديد يتدلى من مقدمة رأسه يكاد يُسقطه أرضاً، وخدر متوحش يلتهم ساقه اليسرى عندما فارقت أمه الحياة بنقاء يخلو من الوصايا والدموع والألم الذي يمتص الروح من الجسد. غادرت في غيابه بلا كلمه وداع او نظرة صدق أو كلمة عتاب واحدة ... وها هو يشعر بالخدر ذاته، بينما تقف بجواره الصبية الحلوة بفستان يتطاير بفعل هواء لا يشعر به أحد سواها، إلا أنه لا يراها و لا تستطيعُ لمسه.

هرع إلى الممرضة التي جاءت من آخر الرواق في غنج مختبئ تتمايل حاملةً باقة كبيرة من الزهور الحمراء. سألها بفزع : "أين الفتاة التي كانت ترقد هنا منذ فترة ؟ اين ذهبت ! "
كاد بسؤاله أن يصراخ فيها فزعاً وغضباً، فجاء جوابها ببرودة جثة هامدة.

- " مهلا يا سيدي، على رسلك. الفتاة نقلت إلى غرفة العناية المركزة في الطابق السفلي"
- " لماذا ؟ "
- " وما يدريني ؟ "

تركها عالقةً بباقة الزهور الحمراء وانصرف؛ لكنها ظلت تنظر إليه بعينين تحتقرانه بشدة و بلا أدنى سبب واضح.
وفي الطابق السفلي، وقف عمر أمام النافذة الزجاجية التي حالت دون دخوله الغرفة. لقد احتد الأمر واصبح أكثر خطورة. هي الآن في عناية خاصة مشددة. لماذا ؟ هل ستنسحبين من الحياة هكذا يا صبا؟

و بينما يلمع اليأس في عينيه بدموع لا يستطيع إمساكها؛ باغته نداء قوي؛ نداء يعرفه؛ يسمعه كثيراً إلا أنه لم يلبّه كما لبّاه ليلة أمس و اليوم ... تكبيرات عذبة تتصاعد من حنجرة مؤذن شاب في مصلى ملحقٍ بالمشفى، و صبا

تقف في اللاشئ تتأمل عمر وهو يتهاوى من احتمال فقدها، يجرجر خيبته متجهاً نحو المسجد متمسكاً بخيطه الأخير. الدعاء !! لقد علمته خلال الأيام القليلة التي قضتها معه أن الله لا يرد عبده المتضرع أبداً. علمته أن الصلاة هي المأمن الوحيد من الموت. ذهب لكي يوفر لها هذا الأمان. ذهب وهو لا يعلم يقيناً هل سيستطيع إعادتها ؟؟ ام أنه قد فقدها فعلاً ؟؟

كانت تتبعه خفيه وهي تبكي. لقد فقدت السيطرة ، فما أن رأته يعتصم بالله ويلجأ إليه في لحظة ضعفه التي باغتته حتى ابتسمت وتنهدت وظلت تتبع أثره. توضأ ودخل إلى الصلاة .. الشمس تغرب، و تغرب معها سعادته. وقف أمام الله يدعوه، يتوسل إليه أن يهبها عمراً آخراً. يتمنى رؤيتها مرة واحدة .. سجد وجهه بين يدي الله فشعر بأن الله جل شأنه يمسح على شعره ويربت على كتفه. هاجت كل مشاعره الخافتة وانهمرت دموعه كالطفل الخائف، وارتفع نشيجه ودعاؤه. لم يكن معه بالمصلى سوى طبيبٍ انتهى من صلاته على عجل، لكنّ دعاء الرجل الساجد وبكائه جعلاه يقف ذاهلاً حتى انهمرت دموعه و أحس بأن شيئاً ما في نفسه يرجو اللهَ استجابةَ دعاء هذا الشيخ.

انتهى عمر من صلاته فانصرف الطبيب خجلاً وارتباكاً. خشي أن يجتمعا معاً فيضطر إلى استماع ما بقلبه من آلام. تكفيه حكايته بثقلها وأوجاعها. تكفيه أمه التي يأكلها السرطان على مهل في المنزل، و زوجته الناشز. اكتفى بهمومه ففرّ سريعاً قبل أن ينكفئ أمام عمر و يجلس مجبراً ليسمع مزيداً من الهموم. و ما أن انتهى عمر من صلاته حتى غفا. سقط كما تسقط أوراق الشجر دون أدنى مقاومة. تبللت لحيته وموضع سجوده بالدموع ، وتورمت أنفه .. استند إلى الجدار البارد وغط في سبات لم يعرف من أين جاءه.

بحرٌ هائجٌ وظلامٌ دامسٌ لا يشوبه سوى قمرٍ باهتٍ يجلس على عرش وهميٍ في السماء السوداء. رمالٌ مبللةٌ وصخورٌ دقيقةٌ تؤلم قدمي عمر. يجري مهرولاً على شاطئ البحر وصوت الموج يرعبه. يبث في نفسه ذعراً موجعاً. بكاء يتسلل إلى عينيه دون رغبته ! ومن بعيد، صوت صبا تصرخ وتئن. يرتفع صراخها وهو يسرع خطاه حتى يلحق بها. لا يكاد عمر يصل إليها أو يراها، حتى ينقطع الصوت وترتفع موجات البحر وهي تصارع الشاطئ لتموت على يديه.

من جديدٍ و بعد وقوفٍ ذاهلٍ لعمر، ينبعث صوت صبا صراخاً ونداءاً. بكاءٌ لا يطيق سماعه منها. الحيرة التي تخنقه تعادل ثقل أعوامه المنصرمة كلها. من بعيد وفي أخر نقطة قد يصل لها مجال رؤيته، وقفت صبا على الماء أو اللاشئ فتجلت في الظلام كالبدر في ليلة سعيدة. تجلّت تشير إليه بيدها ليزداد القمر في السماء خفوتاً وانغماساً بداخل الظلام. تدعوه للذهاب وهو كالمنوَّم يخطو خطواته الأولى في الماء. البرد القارص يلتهم قدميه مستمراً حتى التهم ساقيه وجِزْعِهِ. كان يسير وعيناه معلقة بها لا ينظر تحت قدميه ولا يهتم ببروده الماء ولا يخشى الغرق وهو الذي لم يتعلم السباحة يوماً. و فجأة وبينما هو سعيد باقترابه منها بدت أمامه على مبعدة ذراع واحد يمشيه في الماء سيحصل عليه ولن يفلتها أبداً. لن يتركها تذوب كالثلج مرة أخرى. لكنّها باغتته وسقطت بالفعل. سقطت وكأن حجراً ثقيلاً أُلقي من السماء إلى البحر. صرخ عمر فزعاً وراح يناديها فارتفع صوته وارتعش جسده بجوار الحائط في المصلّى.

استيقظ عمر من غفوته ينادي فتاته المسكينة، و لكن نداء الرحيم باغته. حان وقت العشاء سريعاً و كأن الله يريد اقترابه أكثر فأكثر. قام ليتوضأ مجدداً، و أثناء عودته إلى المصلى قابل الطبيب المعالج لصبا. ذلك الطبيب الذي رآه قبل قليل يبكي في المصلى. ناداه عمر وسأله عن أسرة صبا و سبب نقلها فقال الطبيب :

- " لقد سئموا انتظار عودتها إلى الحياة. هي لم تفق من غيبوبتها حتى هذه اللحظة. حالتها تحتاج معجزة إلهية وقلب رحيم "
- " ما الإجراء المتخذ بعد ذلك ؟ "
- " ننتظر عناية الله أو قضاءه حتى نستطيع دفنها "
- " ما المعجزة التي تحتاجها ؟ "
- " عملية تبرع من شخص حديث الوفاة. نحن بحاجة إلى زرع قلب بصدرها حتى تستطيع العودة إلى الحياة "
- " أين والدها ، لماذا تركها ؟ "
- " لأنه لا يملك ما يقدمه لها. ما الذي تريده من أب يشاهد فتاته الصغيرة تحتضر أمامه. على كل، يمكنني أن أخبرك انها على وشك ! "
- جن جنون عمر و أمسك بتلابيب الرجل حتى كاد يخنقه وهو يصيح .. " وشك ماذا أيها الغبي . لن اتركها ترحل بهذه السهولة "

- " أيها المجنون ، ما بك ، لا تجزع من قضاء الله وقدره " .. صاح الطبيب وكأنه يوقظ شخصاً نائماً أو ينبه إنساناً غافلاً أمام قطار .

اقتربت دموع عمر من الإنهيار مجدداً فتركه الطبيب وذهب ذاهلاً إلى الصلاة لا يعرف بم يفكر أو كيف يفكر. يحتاج الآن فقط إلى صدرها لكي يرتمي عليه وينتهي كابوسه المفزع .. لقد فقدها.

وقف الطبيب في آخر الرواق مندهشاً. حرك يديه ليعدل هندامه ويلملم ما بعثره عمر من كرامته وهو يتساءل في حيرة " إن لم يكن والدها فمن يكون ؟ ولماذا يحزن عليها هكذا ؟ "

دخل عمر في صلاة عشاء طويلة وكأنها العشاء الأخيرة التي سيصليها على هذه الأرض. تفتك به الخواطر والأفكار السوداء كلها. يتمنى أن يشاهدها فقط مرة واحدة. لقد كاد عقله أن يتركه ويرحل. تضرعاته كلها تسقط على بساط المصلي المؤلف من اعواد الخيزران. ثم غادر وهو لا يعلم ما يجب عليه فعله .

قلب عجوز

لاحت في الأفق شمس صباح تحاول إيقاظ عمر من سبات عميق خاوٍ من أي حلم، لكنه استيقظ تماماً كرضيع يجوع فيفتح عينيه باكياً. التفت بلهفة أمل لعله يجدها بجواره كما اعتاد منها في سابق المرات، لكن دون جدوى. لم تظهر منذ مساء الأمس.

دخل إلى الحمام ليغتسل بفتور و حزن قويين. حيرة تثقب أذناه وتغلق أبواب الحياة أمامه ، لم يبق له سوى أمل باهت. أمل استجابة دعائه ورجائه لله. بلا أدنى رغبة، ترك المياه الساخنة التي كثيراً ما نزلت على رأسه بأفكار ونهايات وحوارات مختلفة لرواياته. دخل إلى المطبخ و أحضر لنفسه كوبا من القهوة المرة. إنها المرة الأولى التي يشرب فيها قهوة مرة حزناً وخوفاً. ثم قام من مقعده في الشرفة وقد لمع في رأسه سؤال كعادة اسئلته التي تنم عن واقع عادي وتفكير لا يمثله. أحضر التليفون واتصل بالطبيب المعالج لصبيته.

رنين يصم أذنه. لحظات تبدو أثقل على عاتقه من جبال الألب. صوت الطبيب ينبعث أخيرا مع آخر رشفة من مر قهوته. رد عمر : " أهلا يا دكتور ، آسف إذا كنت أزعجتك "
في المقابل، وقف الطبيب صباحاً يتناول إفطاره المعتاد خارج السكن الخاص بأطباء المشفى.
دارت المحادثة بين طرفين كلاهما مهموم لا يستطيع حتى محاولة الابتسام.
سأل عمر عن حالة صبا فأخبره الطبيب أنها تنحدر فتزداد سوءاً يوما بعد يوم. ثم جاء السؤال الأكثر وجعاً. لماذا تحتاج صبا لزراعة قلب؟ جائت إجابة الطبيب بديهية تنم عن تعجبه الشديد، قال له :
" ألم تكن تعلم بحالة قلبها من قبل ! ". فزع عمر مما يسمع. الخدر الشنيع يسري بساقيه فيسقطه أرضاً من أثر القنبلة المدوية التي انفجرت بأذنه. سقط معه كوب القهوة الزجاجي ليتهشم تماماً كما تهشمت آخر آمال عمر في استعادة صباه. لقد كانت بالفعل محاولة أخيرة لاستعادة ما مضى من عمره. ربما لو عادت لَتَذوّق معها معنى أبوته التي كتمت بداخله و ظلت تعتمل سنيناً طوال. لقد تحرك بظهورها ركود المشاعر في قلبه؛ شعور الأبوة و الصبا والحب و الحياة. لقد منحته أملاً بعد سنوات قضاها في صحراء قاحلة.

الآن، انفجرت أمام عينيه قنبلة كشفت الغطاء عن كثير من غموض صباه. كشفت الغطاء عن أسرار عمقها و روحها و تأملها للحياة بنظرة توحي بنضجها الذي لا يعبر عن حقيقة سن تلك الصغيرة.
الآن فقط أدرك السبب الحقيقي وراء انعدام رهبة الموت لديها. لا شك أنه كثيراً ما داعبها الموت فعايشته قبل هذه المرة التي انتصر فيها و سرقها. وبرغم ذلك كله لم تخبره بمرضها. لم تخبره بأن قلبها الذي امتلأ حباً له لم يخلُ من المرض. ترى كم تحملت من آلام !! ، وكم مرة شعرت بالخوف من أن تغمض عينيها فتنام بلا يقظة !! كم مرة ودعت كتبها و أقلامها و دمياتها !! كم مرة بكت لكونها طفلة بقلب عجوز !!

أفاق عمر من دهشته فاتجه إلى مكتبه الحبيب. مضت ساعات طويلة وهو يكتب ويكتب بلا هوادة. يصارع قلمه وأوراقه. قطرات عرق تقطر فوق الكلمات المرهقة التي تخرج إلى الاوراق بيد مرتعشة من فرط ما أصابه من توتر و انفعال. أحيانا تكون الكتابة نوعاً خاصاً من الإحتضار، من البكاء، من الولادة. الكتابة هي التعويذة التي تتحول بها مشاعر الكاتب إلى حروفٍ. حروفٌ تصف خطته المحكمة لاغتيال الموت ! حروفٌ تصف رسالته الوديعة إلى البشر المعذبين في هذه الارض. حروفٌ تحمل بين انحناءاتها وتموجاتها شعلات من نور.

بدت من عيني عمر نظرة رضا عن رزمةِ ورقٍ نفث فيها حزنه الذي سمم قلبه وروحه. التفت بعينين دامعتين باحثاً عنها في أركان الغرفة لكن دون جدوى. رمق أوراقه بنظرة أخيرة ثم أخرج من مكتبه عدة أظرفِ ورقٍ بيضاء. طبق إحدى أوراقه و وضعها في ظرف صغير كتب على ظهره " إلى صبا " .. أما رزمة الورق الكبيرة فقد وضعها في ظرف أبيض كبير كتب على ظهره " روايتي الأخيرة ".

قام إلى المطبخ مجدداً ثم عاد بكوب جديد من القهوة المرة. ظل أمام اللوحة المعلقة على جدار غرفته ينظر إليها باكياً يرتشف من كوبه مراراً لا يضاهي مرارةَ فقده لصبيته. تناثرت خصلات شعره الشعثاء على جبينه المتفصد عرقاً. لم ينبس ببنت شفة حتى ناداه الرحمن من فوق سموات سبع. ناداه مجدداً ليلتقيان فيتحدثان. قام متوضئاً ذاهبا إليه مولاه مستقلا سيارته.

في الجريدة ..
جلس عمر إلى مكتبه فدخلت عليه فتاة تلتقي به ربما للمرة الأولى. قصيرة الطول نحيلة القوام شقراء الشعر على وجهها نظارة طبية تخبئ عينيها الكحيلتين. قالت بلهجة بدت اليكترونية باردة.

- " مروة من خدمة العملاء يا سيدي "
- " أهلا مروة ، تفضلي " و أشار بيده يدعوها للجلوس.
-

الوجوم البالغ على وجهه خلق حالة من الذعر خارج المكتب. الجميع يهمس ويتسائل عما أصابه. الجميع يشهد الحدث العجيب. لقد قدم الاستاذ عمر استقالته، و يجلس الآن مع موظفة من موظفي خدمة العملاء بالبنك الخاص بحسابه. يبدو أن هناك أمر شديد الخطورة.

لم يدرك أحدهم أن عمر يحتضر. يحتضر احتضاراً خاصاً جداً لم يفهمه أحد من زحام البشر المحيطين به ليل نهار بخلاف الفترة الاخيرة التي انزوى فيها برفقة صباه المفقودة.
إنه لا يعلم أين هي الآن ولا يدري هل ستسعد بقراره أم أنها كانت لتردعه لو علمت ما أزمع على القيام به ؟!
لكنه الآن يفعل شيئاً ما كانت لتقوم بغيره لو أنها كانت بموضعه

غادرت الموظفة الجميلة وبيدها اوراق. دق جرس النداء الخاص بالموظف الأسمر فهرع إليه ..

- " أمرك سيدي "
- " تعال يا ولدي .. اجلس "
- " أمرك " جلس المحرر الشاب والقلق يظهر على جبينه ويطل من عينيه. مد عمر يده وسلمه ظرفاً كبيرا يشبه ذاك الذي احتوى رزمة الورق الكبيرة .
- " هذه هي الرواية التي انتهيت من كتابتها قبل بضعة أيام، و التي من المقرر طباعتها في الصيف القادم. أعهدها بها إليك كوصية أخيرة. أمانة ستتولى إخراجها إلى النور"
- قاطعه .. " ما بك يا سيدي ، لماذا تتحدث وكأنك سترحل عنا إلى الابد ؟ "

- " ربما يحدث ذلك "
- " سلامتك يا سيدي ، هل يمكنني مساعدتك ؟ "
- أجاب عمر بشيء من الضيق " ها أنا أطلب مساعدتك ولكنك تثرثر كثيرا "
- رد المحرر باسماً والخجل يعرقه " آسف ، تفضل يا سيدي "
- " إذا نجحت الرواية وحققت الربح المنشود من ورائها، تقاسمه أنت وصاحبة هذا الاسم. لن تلتقي بها أبدا ولكن فقط ستضع لها نصيبها في حسابها في البنك الذي بدوره سيرسل لها إشعاراً بالمبلغ. لا أحد يعلم بما أوصيك به الآن ولم أخبر أحداً ، ولكن لا تخن وصيتي فانا أعتبرك ابنا لي "
- " هذا شرف لي يا سيدي، وأتمنى أن تعود من رحلتك سريعاً لتتسلم أموالك بنفسك "
- " افهم ايها الاحمق ، أنا الآن أبيعك الرواية ونصيبي سترسله بنفسك إلى ابنتي "
- " ابنتك ؟ "
- " فتاة في مقام ابنتي، كما أنك في مقام ابني. لا تثرثر كثيراً ، تنازل عن هذه الصفة رجاءاً"
- " أمرك يا سيدي "
- تلعثم عمر واحتقنت عيناه دموعا ثم همس " قل يا أبي ..! "
- دق قلب الشاب الأسمر في صدره ولم يستطع منع دموعه من التساقط شفقةً على هذا الشيخ الهرم فقام مندفعاً إلى صدر رئيسه وهتف " أمرك يا أبي " ... وكأنها تخرج من بئر عميق جف لسنوات طويلة ، روت عطشه واطفأت ناره ، وأجرت نهراً من الدموع على أثرها.

انتهت خطوة من خطواته نحو نهاية رسمها خلال السويعات القليلة تحت تأثير القهوة المرة ... مجددا عاد إلى منزله ليجري اتصالا هاتفيا وهو يرتشف القهوة المعتادة ... شعر بأن الخطوات الآتية أشد صعوبة مما سبق ولكنه سيفعل. انتهت مكالمته الأخيرة لزوجته السابقة بعد أن اطمأن عليها وأخبرها أنه سيسافر قريباً وربما لن يعود، فودعته بلا شعور وكأنها تقول بين عباراتها "فلتغادر بسلام لم أعد أطيق سماعك فلماذا لا تنساني".

ظل يقلب الظرف الصغير بين يديه ويتأمل اسم صبا على ظهره. ينظر في أركان الغرفة من حوله باحثاً عنها فلم يجدها. وضع يده على أنفه فاستنشق رائحة اللاشئ. تمنى في هذه اللحظة فقط لو أن لها رائحة تعلق بأنفه، .. لو أنها لم تتلاشى. اكتشف لأول مرة أنها برغم كثير لقاءاتهم لم يستنشق لها رائحة من قبل، لم تأتيه متعطرة أبداً .. ربما لأن الأرواح لا تتميز برائحة !

مكالمة هاتفية أخرى للطبيب الذي لم يفهم حتى هذه اللحظةِ طبيعةَ علاقة عمر بصبا. طلب مقابلته في المساء فلم يمانع. استدعاه إلى منزله لعشاء قد لا يقدم مثله لاحد بعده. وافق الطبيب فاغلق عمر سماعته وقام إلى الوضوء. افترش سجادة خضراء وارتدى ثوباً أبيضاً و وقف أمام المرآة يمشط لحيته.
فكر فيها وسأل نفسه السؤال الذي دائماً ما يلمع في رأسه " طالما أنك لا تصلي ولا تعد من قائمة المسلمين إلا اسما ، فلماذا تركت لحيتك كثيفة هكذا ؟ " .. بحث عن إجابات تصلح لهذا السؤال. وقار .. مظهر .. كسل ! .. كلها إجابات جاءت من قبيل الصدفة. لكنه أحب لحيته و لم يحب شكل وجهه بدونها، و كذلك صبا. لما رسمته أبدعت رسم لحيته .. وعندما سارا معاً كانا متسقين حد الكمال. فتاة محجبة أنيقة وأب وقور !

ضحك عمر من تخيله وانصرف عن المرآة إلى الصلاة. ظل يصلي لساعات طويلة .. يصلي صلاة عاش عمره يسمع اسمها ولم يدركها. إنها " صلاة مودع ". صلاة تخرج من قلب رجل ربما يفارق الحياة في غضون زمن أقصر من أن يقاس !
ظل يصلي حتى دق جرس الباب. فرغ من صلاته و راح ليفتح الباب ليجد الطبيب و قد حضر.
دخلا معا إلى المطبخ. جلس الطبيب على كرسي بينما انخرط عمر في تجهيز وجبة من المكرونة بالدجاج. كان يرتدي الثوب ذاته وعيناه متورمتان من كثرة البكاء و الطبيب بقميصه وبنطاله يجلس مندهشاً من ما يرى. لملم شجاعته كلها ودفعها مرة واحدة في سؤال

- " أنا لا افهمك، لماذا تحزن عليها كل هذا الحزن ؟ وماذا تمثل لك تلك الفتاة ؟ "

رمقه عمر بنظرة من ترك الدنيا للدنيا ولم يعد يهتم بتوضيح الفكرة ولكنه برغم ذلك تحدث قائلا :
- " لا يهم من أكون لها ومن تكون لي .. لا يهم. المهم أنني لن أتركها للموت يأخذها مني، وهذا ما جئت بك من أجله "

- " وما الذي يمكنني تقديمه لك في مسألة كهذه ؟ "

- " ما الذي قد يحتاجه المتبرع الذي سيعطيها قلبه ؟ "
- " يحتاجه لماذا ؟ .. لابد أن يكون حديث الوفاة كما أخبرتك سابقاً حتى نستطيع استخدام قلبه. فلا يعقل أن نهب الفتاة المسكينة قلباً و قد تجمد ! "

لم يستسغ عمر دعابة الطبيب سخيف ، فاستكمل وكأنه لم يسمع ..

- " لكن المتبرع حي "
- " أرى الأمر في غاية الخطورة. من ذلك الذي سيتنازل عن حياته بمحض إرادته ليهبها لفتاة ؟"
- " لا يهم كما أخبرتك، ولكن قل لي ما هي الاجراءات المطلوبة وكم ستأخذ من الوقت والمال ؟ "
- " لا شئ سوى بضعة فحوصات وتحاليل وأشعة تطمئننا على حالة القلب ومدي قابليته ومدي تقبل جسد المريضة له ، فإذا انطبقت عليه كل المواصفات نجري العملية فوراً "
- " ومن سيجريها ؟ "
- " أنا وفريق من الأطباء المتخصصين "
- " هل تعد نفسك على كفاءة عالية لكي أضع بين يديك حياة طفلتي ؟ "
- "طفلتك !! "
- "مجازاً .. طفلة في مقام ابنتي "
- "كي أكون صادقاً معك. نحن نفعل ما بوسعنا، لكننا لا يمكن أن نضمن لك أن عمرها سيمتد أكثر مما كتبه الله لها "
- " هل وجهت لله رسالة من قبل ؟"
- تعجب الطبيب " عذراً، ماذا تقصد ؟ "
- " أقصد .. هل تعتقد أن الله سيدخلك الجنة ؟ وإذا كانت إجابتك نعم ، فماذا ستفعل فيها ؟ وماذا ستطلب وما هي امنياتك التي ادخرتها إلى الجنة ؟ "

شرع الطبيب في الحديث فقاطعه عمر بأن العَشَاء جاهز. ناوله عدة أطباق طالباً منه أن يضعها على الطاولة بالخارج. بالفعل قام الطبيب إلى الطاولة ورتب عليها الأطباق ثم جلس على أحد مقاعدها فناداه عمر من الداخل .. ظلا يروحان ويجيئان حتى تم اعداد السفرة ووضع كل الاطباق.
طبقان من المكرونة و طبقان من السلطة وعدة معالق و أكواب ماء زجاجية واطباق صغيرة بها سوائل حمراء، و طبقاً وحيداً به بطاطس مقلية وطبق عميق وضع بوسط السفرة فيه شوربة ساخنة وعلى جانبه معلقة غرف كبيرة.

جلسا أخيراً وكل منهما يتناول ما يشتهيه من الطعام. تناول الطبيب شيئاً من طعامه ونظر إلى عمر مبتسما يقول :

- " أنت كاتب رائع و طباخ ماهر يا سيدي "
- " أشكرك "

تعرق الطبيب وهو يتلذذ بتناول الطعام بينما عمر يفكر ملياً. سيطلب من الله أن يكون له أبناءاً تسعة في الجنة وقصراً من البلور لصبا وحدها. سيسأله أن يتناول معها المثلجات في بساتين الجنة الخضراء. سيسأل لها تاجاً من نور. سيحدّث الله عنها كثيراً ، وسيهب لها نصف النعيم الذي سينعم الله به عليه.

انتهى العشاء و همّ الطبيب بالذهاب لكن عمر استوقفه وقال بجدية بالغة :

- " سأمر عليك غدا لبدء رحلة الفحوصات ، ولكن أريد الأمر في سرية تامة "
- " هل وجدت متبرعا بالفعل ؟؟؟ "
- " أنا المتبرع يا دكتور !! " لفظها عمر وكأنه يسقط عن كاهله ثقلاً مميتاً فخرجت منه صارخةً كالوليد المنطلق من رحم أمه يبكي .. ارتعد الطبيب مما سمعه و لم يصدقه
- " هل تقصد ...! "
- " نعم و سأوقع لك على إقرار بمسؤوليتي عن العملية "
- " ولكن ؟ "

- " لكن ماذا ؟ "
- " لن أثير قلقك ولكن لنرى ما ستؤول إليه الفحوصات " .
- " حسنا "
- " إلى اللقاء "
- " إلى اللقاء "

غادر الطبيب والذهول يكاد يدمي ملامحه، صوت أمه المسكينة وهي تتألم يدق في أذنيه كناقوس كبير في كنيسة مهجورة. رجل يضحي بحياته من أجل فتاة ؟!
لماذا لا تكون ابنته غير الشرعية ؟؟؟ احتمال جعل الطبيب يشعر بارتياح امام الموقف الذي سيقضي عمره كله في محاولة تفسيره.

ما قبل النهاية

الانتظار موت غير معلن .!
جرت أيام بثقل الدهر. ساعات تمضي وهو بين يدي الله يتضرع خفية من بهيم الليل وحتى ضياء الفجر. وأخيرا جاءته المكالمة الهاتفية التي ينتظرها أشد انتظار. فرحته العارمة جعلت الطبيب يهوي على كرسيه أسير الدهشة والتعجب. لشد ما رآه من ذلك الرجل. جاءت النتائج كلها في صف صبا. ستجرى العملية صباح الغد. و تلك هي ليلته الاخيرة و سعادته التي لم يكن لها مثيل. كان ينتظر البشارة بقلب أب ينتظر ميلاد طفله الأول و الوحيد، وعيون مغترب يتوق إلى وطنه.

جلس عمر في مكتبه مستعيدا ذكرى ليلته الأولى معها. هنا جلست ، وهنا رقصت ، وهنا تمايلت .. سمع طرقاً خفيفاً على الباب .. الساعة في المنبة الصغير على مكتبه تشير إلى الواحدة صباحاً. قام وهو يرتدي بيجامته المعتادة وعلى وجهه نظارة طبية حديثة ، فتح الباب فلم يجد أحداً.
الطريق البارد يشهد على ليلته الأخيرة في هذا الشتاء. الاشجار تقف عارية في مشهد يثير في قلب عمر شجون ليست قديمة وإنما هي فقط ذكريات سيشتاق إليها كثيراً.

و كالمرة الأولى لم يتعجب عمر من طرق الباب غير المبرر. يبدو أن الهواء يجدد معه ماضيه القريب. جلس إلى المكتب فتسمرت أطرافه فزعاً من هول المفاجئة .. ثوان معدودة مرت وهو صلب كالزجاج، وفجأة تبعثر في كل أنحاء الغرفة كالشظايا.
همس وهو يكاد يموت من شدة الفرح

- " صبا ، أخيراً عدتِ إلى حبيبك ؟"

لكنها لم تعطِهِ جواباً. ظلت ممددة أمامه على الأريكة من دون كلمة واحدة. جلس أمامها طوال الليل حزيناً بوداعها، يتشبع بها، سعيداً من أجلها، إلا أنها لا تنظر إليه. ساوره شكٌ بأنها مجرد خيال، استعادة لحظية لذكرياته، توهّمات. قام ليستعد إلى الفجر. و بالقرب من النافذة الوحيدة بغرفة المكتب وقفت صبا ورفعت

صوتها لتنادي عمر. عاد مسرعا لها وهو لم يكمل وضوءه. وقف أمامها فنظرت اليه نظرة ميتة. كانت تجلس على حافة النافذة. ابتسم لها وهو يهمس :

- " ولكنى غاضب منكِ ، لقد قلقت عليكِ "

ما إن اتم عبارته حتى سقطت إلى الخلف في مشهد خاطف خلع قلبه من الفزع فصاح وهو يهرول نحو النافذة :

- " صـــــــــبـــــــا "

وقف امام النافذة ينظر إلى الخلاء الموحش فلم يجد لها أثراً. هل هي غاضبة منه فتعاقبه الآن ؟
أم أنها هلاوس تحدث له لشدة توتره ؟ وما الذي يثير القلق في الامر ؟
القبر؟ مجرد غرفة مظلمة وما أكثر الظلمات التي يقابلها المرء في حياته. الموت ؟ الموت آتٍ آت لا محالة.. فاليوم يشبه الغد كما يشبه قادم الأيام قريبها و بعيدها. الوحشة ؟ ستؤنسني صبا. العقاب ؟؟ الله لن يعاقبني، فهو يحبني وهو يعلم بحبي لصبا ، بل إنه يساعدني في بقائها حية.

ارتفع الأذان ليقطعه عن افكاره بتشتتها الرهيب. وقف للصلاة .. الصلاة الأخيرة .. "صلاة المودع". بكى بكاءاً لم يبكيه طوال عمره. قرأ كل ما استطاع تذكره من القرآن. تمنى لو أن الله يغفر له ما مضى من سنوات لم يصل فيها. ركعتي الفجر قصيرتان جدا مقارنةً بما في قلبه من رغبة في الصلاة.
بقي مشوار واحد لابد من الذهاب إليه. ارتدى تلك البزة التي حضرتها بيدها في أول مرة خرجا فيها معا. مشط شعره في وداع أخير، نظر إلى عينيه العميقتين وتمنى لو أطلت عليه منهما تقبله فقط ثم ترحل. دون جدوى ، أمسك بزجاجة العطر وأخذ يوزع زخات منها على صدره وهو يتأمل وجهه الهَرِم. إنها المرة الاولى التي ينتبه فيها لوجود خالٍ أسودٍ أسفل عينه. المرة الاولى التي يكتشف فيها أن سنّهُ الأمامية بها كسر دقيق .
كان يودع نفسه أمام المرآة التي ودعته بدورها و اشتهت البكاء للمرة الأولى في تاريخها المنعكس على وجه عمر .. تركها تبكي بقلبها وانطلق قبيل شروق الشمس.

كان من المفترض أنهم على علم بما يحدث وأنهم وافقوا على إجراء العملية. لكن انسحابهم المفاجئ ويأسهم من عودتها إلى الحياة جعله يجاهد من أجلها وحدها فقط. طرقات هادئة ثابتة على باب منزلها. لم يستيقظ أحد بعد. كرر الطرقات. قلبه يصرخ " هيا استيقظوا سأعيدها لكم " .. من بعيد ومن عمق الدار ينبعث صوت عصام ناعساً

- " من الطارق ؟ "
- " أنا عمر "
- " عمر من ؟! "
- " عمر المصري "
- بتذمر " وماذا تريد ؟ "
- " أريد أن أتحدث إلى والدتك قليلاً "

دارت تلك المحادثة الطويلة من وراء الباب الخشبي للشقة، وعلى مضض فتح الباب وابتلعه ظلام الشقة التي لم يَحِن موعد نهارها بعد. رائحة نومهم تسمم الهواء. يغطون في سبات أهل الكهف. واليوم ميعاد بعث جديد للكائن المبهج الذي أنعم الله عليهم به .

مرت دقائق طالت إلى ما يقرب الساعة ثم خرجت الأم بعد طول الانتظار تنظر اليه بحقد؛ لكنه تحمل نظراتها الموجعة وداهمها وهو يَهِبّ واقفاً ليمسك رسغيها ويأخذه إلى صدره في جرأة لم يعهدها في نفسه !
شَخَصَ بصرُها وهي ما زالت عالقة بين مخالب النوم بسلطانه.
همس وهو يبتسم ..

- " جئت فقط كي أخبرك أنني سأعيد لكِ فتاتك المفقودة "
- " ماذا ؟ "
- " صبا ستعود "

شهقت بين يديه ضاربةً صدرَها بكفِها و قد فر وجهها سريعاً من ملامح النوم إلى أشد درجات اللهفة والفزع. اعتدلت مبتعدةً عنه في ترقب لما ستلقيه عليها عدالة السماء من بين شفتيه. رفع رأسه ونظر إلى عصام الذي وقف مشدوهاً يراقب الخبر بفارغِ صبره.

- " لقد وجدت متبرعاً تنطبق عليه مواصفات القلب الذي تحتاجه صبا، وستجرى العملية بعد سويعات؛ فجئت فقط لاخباركم." تنحنح قليلاً ثم قال: "التكاليف كلها مدفوعة مقدماً. أتمنى أن تكوني راضية عني"

رمقته الأم بنظرة يشوبها البكاء بينما هاجمته عيون عصام المستفهمة التي لم ترسُ بعدعلى شاطئ آمن. فهتف مستفهما بنبرة حازمة

- " من أنت؟ .. ومن أين عرفت بما أصاب أختي؟ ولماذا تفعل كل ذلك؟ انطق وقل لي ما علاقتك بها؟ "
- " على رسلك يا عصام ، اهدأ قليلاً يا صغيري "
- بدهشة واستنكار رد قائلاً .. " صغيري !! "
- " أقصد أخي ، لا تغضب هكذا ، ربما لن تجمعنا الأيام معاً مرة أخرى، ولكن أختك كانت من أشد المعجبات بقلمي وبما أكتب. وهي كذلك أصغرهن سناً وأكثرهن حباً وتعمقاً في معاني الأدب. ألا يجب عليّ من باب الاحترام أن أحافظ على حياة فتاة كهذه ؟ "
-

لم يستطع عصام الرد على كلمات عمر المنمقة ولكن الأم صاحت في ولدها بغضب:

- " وما الذي يعنيك أيها الوغد، المهم أن صبيتي الحلوة ستعود إلى حضني ، ستناديني بقولها الحبيب " أماه " أخيراً سأشاهدها تضحك من جديد "

وانهمرت أنهار البكاء ثلاثية العيون فتحول الصباح النائم إلى صباح باكٍ. سحابة من الدموع أمطرت لكن عمر فرَّ هاربا منها وطلب منهم الحضور إلى المشفى في الموعد المحدد.

في المشفى ..
وقفت كل ساعات المشفى متعلقة بهذه الساعة التي ستخلد في تاريخ صبا و تاريخ المشفى و تاريخ الطبيب الذي لم يفقه حتى الآن طبيعة ذلك الحب الذي ربط عمر بصبيته المريضة ..
من الرائع جدا أن تعشق شخصاً به من الروعة ما لا يستطيع غيرك رؤيته. لا أحد يدرك الحد الذي وصلت له صبا من النقاء والرقة والجمال والخفة ، لا أحد يعلم أنها معجزة إلهية تسير على الارض بين البشر بهدوء لا يليق إلا بفتاة تشبه الماء المنهمر من الشلال في ساعة الإشراق فقط .
القرآن له حلاوة عجيبة. أتم عمر تلاوتة ماتيسر له ثم قام ليقف امام الطبيب الذي لم يستطع السيطرة على دموعه. إنها المرة الاولى وقد تكون الأخيرة على مدار سنوات امتهانه للطب .. المرة الأولى التي يشاهد فيها حياة تبذل من أجل إحياء شخص آخر. حياة تبذل في سبيل حياة.
لم يقل عمر أي كلمة ندم على قراره ولا كلمة وداع ولكن .. مد يده بالظرف الصغير وهمس للطبيب:

- " تلك هي وصيتي الأخيرة ، عليك ان تسلم هذا الظرف بنفسك إلى صبا عندما ترى أنها شفيت وعادت إلى تمام عافيتها، ولا تقترب منها بعد ذلك "
- " أمرك سيدي "
- " هيا ، لقدد تأخرنا ! "

ما أقسى البسمة التي ترتسم على شفتي عمر وهو في طريقه الأخير. ضربات قلبه الأخيرة، ذرات الأكسجين، ملمس الجلد ، رائحة الجو ، كل شئ في محيطه متبوعٌ بكلمة أخير .. ما عدا صبا ونبضات قلبه الذي سيزرع في صدرها. لن يفترقا من هذه اللحظة .. سيرحل ولكن حبه سيبقى خالداً. أغلق باب غرفة العمليات قبيل وصول الأم والأب وابنهما الذي لم يخرج من ذهوله بعد.

ما بعد النهاية

العودة من الموت
رؤية ضبابية، أصوات منبعثة من بعيد، همهمات متلهفة وعبارات حمد وصلاة على النبي و بكاء. كانت تعرف هذا البكاء كما تعرف تفاصيل جسدها الصغير. رائحة تشبه رائحة أهل الأرض .. ليس في الجنة بكاء. ومن هذا الذي يصلي على النبي في الجنة ؟

انتبهت صبا وهي تفتح عينيها ببطء نائمةً على سريرها في غرفة لها جدران عاجية و شرفة رخامية مغلقة بباب زجاجي كبير. وقف الطبيب ومعه الأم والأب اللذان ذابا بكاءاً من شدة الفرح. استيقظت وعلى وجهها دهشة كبيرة، تلتفت بحثا عن شئ كبير فقدته. كادت تبكي لكن الدموع تعصي رغبتها في البكاء فتعتصم بجفنيها المتهدلين.

اندفعت نحوها الأم في شوق حارق ليتعانقان عناقاً يبكيهما بكاءاً فوق بكاءهما. غصةٌ في الأفق البعيد تؤلم صدرها. غربة ما تحلق فوق رؤوس الجميع. العيون كلها تدور حول الغرفة التي عادت لها الحياة من جديد. كان عمر على حق فالموت لا يلهو مع أحد وإنما هي مجرد إنسحابات وطرق قصيرة للهرب. نظرت إلى الساعة المعلقة على الحائط، تبدو الخامسة. أي خامسة فيهن ؟
الخامسة فجراً حين يتجلى الله من علياءه ؟! هل عدت إلى الحياة من أجل شهود هذه الساعة ؟ أم أنها الخامسة عصراً، ساعة رحيل الملائكة محملين بأعمال العباد وأحوالهم إلى رب البرية ؟! .. أم أنها الخامسة التي ذهب فيها عمر إلى عيادة الأمراض النفسية ليتحقق من وجودي ؟! أم هي الخامسة التي انسحبت فيها من الحياة قبيل الأمسية المزعومة ؟!
أي خامسة فيهن ؟! أم أنها خامسة جديدة تبكي بصوت طفل حديث الولادة يلهث وراء ثدي أمه. لا تعلم تحديداً في أي الإحداثيات الزمنية جاءت إلى الارض ولكن خيبة كبيرة تغيم نهارها السعيد.

من بين العيون الفاحصة و المتربصة و المتحفزة والمتأملة، ومن بين وابل القبلات التي انهمرت على وجنتيها الشاحبتين، كان الطبيب يقف بينهم باكياً وبيده الظرف الأبيض .. الوصية .. الرسالة التي تبدو في نظره الأخيرة .

رمقته باستفهام بريء فرفع يده إليها بالظرف. خالطها شعور بالحيرة فهي لا تدري، هل يجب أن تسألهم عنه ؟ هل كان كل ما حدث حلماً ؟ هلاوس مرضية فقط ؟ ، هل هناك كاتب فعلاً يدعى عمر المصري ؟ امتد الزحام والحديث حتى نهاية الليل، وأخيرا جاء المنقذ. طلب الطبيب بصوت هادئ أن يتركوها لتأخذ قسطاً من الراحة فهي ما زالت تحت الملاحظة، لم تتعافى كلياً. ما زالت هناك جروح تحتاج وقتاً إضافياً لتطيب. كما أن هناك جروح لم تطيب بعد؛ وثمة جروح تنبىء بها حالة الغياب والحيرة المؤسفة. جروحٌ آتيةٌ، محتملةٌ، على وشك الحدوث.

ظلت وحدها لدقائق تفكر، تلتفت يمنة ويسرة، تبحث عنه بداخل عجزها، بعمق روحها. شئ ما تغير، شئ لا تعلمه، لا تدركه، لكنها تشعر به.

فتح باب الغرفة و دلف منه الطبيب وعلى وجهه وجوم يصاحب الموت. وجومٌ له رائحةٌ تشبه رائحة الجثث. تحرك ببطء نحوها وهي ترقد أسيرة فراشها في حالة السكر لم تفق منها بعد. جلس بجانبها وربت على كفها الصغير وهي لم تفهم بعد ما يرمي إليه.

تنظر إليه بتوجس و ريبة وهو لا يقوى على نطق ما جاء من أجله.

- " ما بك يا دكتور ؟ "
- " معي أمانة أريد حملها إليكِ "
- " حسناً ، هاتِها "
- " ولكن ؟ "
- " لكن ماذا ؟ ، ماذا هناك يا دكتور ؟ "
- "كيف حالك الآن يا صبا ؟ "
- أجابت بتعجب تفوح منه رائحة الغضب " دكتور .. أظن أنك على ما يرام اليوم أليس كذلك ؟ "

مد الطبيب يده بالظرف المغلق فوضعه على حافة السرير ثم قام مغادراً خارج الغرفة والدموع تغلبه. سريعاً وقف وراء النافذة الزجاجية و فضول كبير يرتعش بداخله فقد قضى ليالي عديدة يحاول محاربة هذا الفضول وهو

ينظر إلى الظرف بعينين جائعتين تريدان التهام محتوياته. لكنها أمانة ووصية لرجل ميت. ميت تمتع ببسالة لم يعهدها طوال عمره. لذا تحامل على نفسه حتى بلّغ الرسالة وأدى الامانة تجاه صبيته و انطلق ليختبئ في موقع يَرَى منه ولا يُرَى.

بلهفة شديدة فتحت صبا الظرف المريب. لقد شاهدته قبلاً، لكنها لا تذكر أين !! .. و فور رؤية خط اليد، تلك اليد الكبيرة التي تحتضن كفها الصغير، تلك الأنامل التي داعبتها كثيراً خلال حلمها الطويل !

رسالة ...

بسم الله الذي لم أعبده حق عبادته إلا بعد ظهوركِ في حياتي ..

إلى

حيث شاءت، لا استطيع إخبارك يقيناً أين سأكون .. لكن اعلمي أني سأكون بخير فقط لانتي سعيدٌ .. سعيد بعودتكِ يا صبيتي الصبية التي أعادت قلبي إلى صِباه وصبوته وصبابته ... إلى طفلتي الأولى والتي اختصر القدر في نقائها تسعة انبياء حلمت بهم .

أما بعد

طفلتي المفضلة من بين أطفال كثيرين لا اعرفهم في الحقيقة إلا أنك مفضلة عن كل ما هو سواكِ.

صباح الخير يا حلوتي .. اتمنى ان تصلك رسالتي في صباح باكر يشبه وجهك الصبوح ..

عندما تقرأين هذه الرسالة وتلتقي حروفي بمقلتيك اللتين غرقتُ بهما سأكون بجانبك، أو ربما تحت التراب أو لعلني لست نقيا مثلك حتى تتحرر روحي وتنطلق.

لا تجزعي من قضاء الله وقدره. عندما ذهبت للطبيب وغضبتِ مني ايتها الشفافة لم أكن اشكّ في وجودك ، فلقد دللتني على عنوان بيتك ، وطريق المشفى و قابلت أمكِ وأبيكِ و أخيك عصام ، كما أنتي أحتفظ من غرفتك ببضع لوحات من أروع ما يكون.

عزيزتي ، او كما تحبين " حبيبتي " هذه في شريعة الكتابات تسمى وصية وأظنك تدركين ذلك. لا تغضبي فأنا لم أخبئ عنكِ شيئا كما فعلتِ انتِ. لقد أخفيت عني سبب موتك المؤقت ، ولكن الله فضح كذبك علي ، لقد كذبتِ عليّ يا صبا بعد ما عشقتكِ حد الجنون .

أتعرفين، اني أشعر الآن بدموعك الدافئة وهي تسيل على خديك. ذلك ما كنت أحمل همه، ولكن .. عندما قلت لي ذات ليلة من ليالي سمرنا أنك تفضلين البقاء معي برغم حنينك إلى أمكِ .. ذلك الحنين الذي أبكاكِ حينها، شعرت بأن شيئاً ما يدب في روحي .. شيئا وكأنه الروح تدب في أعماقي، حبيبتي.

لست جباناً كما نعتتني ولست وغداً. ولكن ما قيمة الحياة إن لم تبذلها في سبيل حياةٍ أخرى، شخصٍ آخر يستحق العيش أكثر منكَ. لقد كنتِ أنتِ ذلك الشخص المفدّى بحياتي.

صبيتي الحلوة ، لقد كتبت حكايتنا وسميتها "روايتي الأخيرة". أودعتها في خزينة صغيرة في البنك المسجل عنوانه ورقم هاتفه بالاسفل. و تركت لكِ معها كل ما كنت أملكه في الحياة. لقد تركت لكِ بيتي والمفتاح ملحق بالظرف الخاص بهذه الرسالة. تركت سيارتي، فإذا شئت تغييرها فغيريها واذا شئتِ الاحتفاظ بها فافعلي. أنت وريثتي الشرعية وامتداد عمري وصحوة الحياة التي رزقت بها في ليلة كئيبة كنت أعاني فيها من الوحدة بعد رحيل أبطالي.

صبا ، لقد تركت نهاية الحكاية مفتوحة فقد كتبت حتى ما قبل زيارتي الأخيرة لأمك ... ولكِ حرية انهاء روايتنا وكتابة ما ترينه يلزم.

ضعي في الإهداء هذه الكلمات :

[إلى أجمل ما يعلق برأس المرء من ذكريات .. إلى الصبا ، أهديك صباي الخاص]

صغيرتي ، في كل ليالي سمرنا لم يرد بخاطركِ يوماً أن تسالينني عن سنوات المحاماة والجامعة وهي سنوات الصبا المزعوم . ربما كان سبب عدم الحديث عنها أنها لم تكن الصبا الذي أردته. سنوات كنت فيها خارج دائرة البطل. كنت في حكايتي مجرد قارئ يقرأ بملل ما تسرده الأيام من أحداث. يقرأها كمسلمات استسلم لها بملء إرادته أو ربما رغما عنه ، لم أكن أحب والديّ كما شعرتِ، ولكن عندما تموت يحبك الكل فجأة ، وذلك هو ما يسعدني الآن. سأموت في نظر البشر وأحظى بحب إضافي فوق حبكِ لي ، حبكِ الذي احياني.

إذا وصلتك الرسالة قبل دفني فلا تفعلي ما اتفقنا عليه من النزول إلى القبر، لا يليق بفتاة رقيقة مثلك أن تبيت ليلتها في قبر موحش بجانب جثة بلا قلب .. وحينها يا صغيرتي قد نلتقي لقاءاً روحياً نتبادل فيه المقاعد. لا أخفي عليك أمراً فانا أخشى ان لا تخرج روحي وتأتي إليك كما فعلتِ، فربما كنتِ أكثر مني تحررا ونقاءاً ولكن سأهبك يقينا خالصاً في محاولة للبقاء معك قدر المستطاع. سأهبكِ قلبي العجوز لتعيديه إلى الصبا وهو بداخل صدرك. سينبض بداخلك معبئاً بحبي لكِ. أتمنى ان يستطيع اسعادك كما كنت سأفعل إذا ما التقينا.

صبيتي ... إليك آخر ما أفكر به قبل فراقي لعالمك و هو الجنة. سنلتقي هناك وتشير إلينا أصابع الملائكة وتقول " هذا الرجل هدته بنته. سيعرفون أن القلب الذي عشقكِ تمنى أن تكونين ابنته. سيعرفون أنني لم أكن شخصاً يستحق حبك إلا عندما غيرت أنتِ حياته.

صبيتي ... لا تتنازلي عن الحياة من أجل رجل لا تعرفينه. جربي الإيثار فيما تستطيعين التخلي عنه. وتجربتي هذه هي الإيثار الوحيد الذي قمت به خلال عمري .. لا يمكنني أن أطيل الحديث اكثر من ذلك ، ربما لو كنت معي في محاورة كسابق عهدنا لتحدثنا في أمور أكثر دقة وتفصيلاً ولتحدثنا لوقت أطول وأكبر ... لن أكتب لكِ وداعاً ولن يكون المشهد جنائزياً بقدر ما هو مشهد مبهج. إن لم يظهر لكِ طيفي في الليالي الظلماء، ثقي أنني بجانبك، بداخلك، معكِ ... وابتهجي ، وانشري حب الله الذي يملأ اعماقك في المحيط من حولك، الله جميل يا صبا، جميل لانه رزقني بكِ حتي يجذبني إليه و ينعم عليّ. اسأليه لي المغفرة لأنني لا اعرف ما إن كان ما فعلته هذا سيغضبه أم سيرضيه ... واسأليه عني إذا ما دخلتِ الجنة و لم تجديني .

إلى اللقاء هناك يا طفلتي .

أبوكِ الهرِم / عمر حسن المصري .

انتهت صبا من قراءة الرسالة بعينين أدماها البكاء فطوتها أعادتها إلى الظرف الذي احتوى ثلاثة مفاتيح احدهم مفتاح المنزل والآخر مفتاح السيارة والثالث مفتاح الخزينة.

التفتت حولها لتجد الطبيب واقفاً عند باب الغرفة وعلى وجهه تساؤل كبير، فابتسمت وهمست له في تودد " لقد كان معلمي ووالدي "

تمنت حينها أن تظهر روحه ولكنه لم يفعل. سألت الطبيب عن جثته فأخبرها أنهم دفنوها. وفي الجريدة مقالٌ بعنوان
" وفاة غامضة للكاتب عمر المصري " ...

مرت أيام ممتلئة بالبهجة. عادت الأمور إلى نصابها الحقيقي من جديد. شفيت صبا تماماً و استردت عافيتها. ذهبت لتُحضر الرواية المحفوظة بخزينة البنك. دخلت إلى غرفتها التي عُبأت بالبالونات البيضاء والورود. لقد جاءت سمية إلى هنا؛ رائحتها تعلق بذاكرة الغرفة. حزن ما يختبئ خلف كل معالم البهجة التي تصبغ غرفتها. وضعت يدها على صدرها وتفقدت نبض قلبه بين جنبات نفسها. ابتسمت لبقاء قلبه معها بالرغم من الفراق الذي وضعه بينهما ملك الموت .. ترى هل سيلتقيان معا بالجنة ؟ لا أحد يعلم هذا الامر سوى الله الذي سخرهما لبعضهما.

النهاية

عندما يبتسم لك ملك الموت ..
لم يبق من الوقت سوى زمن قصير. آيات الفاتحة ترتفع من بين شفتيه وهو ممد على سرير لم يصنع للنوم بل صنع خصيصاً للموت. الموت الذي يصيب المرء عندما يخضع لعملية جراحية ما .. القلق الذي يكاد يحرق شظايا جسده هو قلق من أن لا يلتقيان معاً مرة أخرى.
ربما قد التقوا في عالم آخر قبل عالم البشر. ربما كان نبتةً كانت هي الضوء المغذي لها. ولما لا يكون جسماً صخرياً وكانت هي قطرة الماء التي أحيته وجعلته خصباً. كانا معاً في عالم من عوالم أخرى. ربما سيلتقيان في كوكب آخر، وبين بشر آخرين. قد يبعثان من جديد ولكن في دولة أخرى بين عقول وقلوب مختلفة.

قد لا يلتقيان مرة اخرى وقد يستحيلا تراباً. ولكن في النهاية، أيا كان الإحتمال فسيبقى معها قلبه أينما ذهبت وحيثما كانت .. سيبقى قلبه ينبض بداخلها، يحييها كما أحيته. لقد قرر عمر انتزاعها من بين يدي الموت، فوقف أمامه أعزلاً لا يملك سوى حياته.

غفا عمر ، وسرى مفعول التخدير في جسده، وعبر الأثير وقفت روحه تشاهد التفاصيل. الطبيب يقف عند رأسه باكيا. أمسك بسلاحه وجاء ملك الموت ليقف من وراءه ويمسك يده كما تمسك الأم يد طفلها وهي تعلمها الكتابة .كان ملك الموت يكتب النهاية بسلاح الطبيب.

فتحا معا صدر عمر واستخرجا قلبه النابض ليضعه أحدهما سريعا في كون جليدي ضيق، فرفع ملك الموت رأسه ونظر إلى روح عمر و ابتسم ، ابتسامة لم يدرك معناها، لكنه شعر لأول مرة بعد موته بشعور الليل عندما يخنقه النهار عمدا .. يشعر بأنه يتلاشى، ينصهر كما تنصهر الشموع في حضن الظلام ، ساورته الشكوك فعلم أنها النهاية. تمنى حينها لو أنه قطرةُ مطرٍ سقطت على كفها ثم تبخرت بفعل الشمس الساخنة ظهيرة يوم حائر بين الصيف والشتاء.
يوماً ما ستشرق روحه من العالم الآخر وربما لن يأتي هذا اليوم .. و لكن في الجنة موعدهما .

خفتت الاضواء وتلاشت روحه حتى انتهت. لقد أفرغت تماماً من هيكله الذي يعرفه، وانساقت مذعنة إلى عالم لا يمكن لبشر ان يدخله ولا يمكن لراحل أن يعود منه. طريقٌ نهايته الأكيدة لقاء الله عاجلاً أم آجلاً ... لقد تمنى عمر كثيراً أن يلتقي بالله لقاءاً خاصاً ، وها قد ذهب إليه.

اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ

سورة الزمر (٤٢)

تمّت بحمد الله

٢٤ سبتمبر ٢٠١٤